فرسان كاد ينساهم الزمان

ملمح من سيرتهم
تحليل مختصر لشخصياتهم

أسامة عبد الرحمن

الكتاب: فرسان كاد ينساهم الزمان .. ملمح من سيرتهم

تأليف: أسامة عبد الرحمن

الناشر: دار نوبل للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2016م

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

الهيئة العامة للكتاب

الفهرسة أثناء النشر

عبد الرحمن، أسامة

فرسان كاد ينساهم الزمان .. ملمح من سيرتهم ، أسامة عبد الرحمن، الجيزة: دار نوبل للنشر والتوزيع، 2016.

العنوان : 371.8 128 ص؛ 24سم.

تدمك

1- دراسات

2- العنوان.

ديوي 371.89



دار نوبل
للنشر والتوزيع
٤ ش سيد الخطيب
متفرع من ش الثلاثينى - عمرانية غربية

المقدمة

كاد الناس ينسون صانعى الحضارة الاسلامية ، وأصحاب الفتوحات الذين ما أحوجنا إلى أحدهم الآن انهم حملوا مشاعل النور، ليضيئوا بها الأرض من مشرقها لمغربها فحملة المشاعل هؤلاء ،حين اتخذناهم قدوة جاءت من بعدهم أجيال حافظت على أطراف العالم الإسلامى، وحمته من العدوان الامبريالى الغاشم الذى مازال يصر على نهب الثروات الإسلامية ، ومازالت حملاته الصليبية على دول الاسلام التى عاد بعضها إلى أديان الكفر، كالفليبين أو خلط بعضها الكفر مع الايمان كلبنان الإسلامية ، التى نص دستورها الحديث على نصرانية رئيس الدولة ،وأن يكون رئيس وزراءها هو المسلم ،بالمخالفة لطبيعة الدولة التى كانت اسلامية ،وتغيرت بعد الاحتلال الفرنسى رغم أغلبيتها المسلمة،أو كمن أهملتهم القوى الاسلامية وتقاعست عن نصرتهم كميانمار وسيلاويزى والبوسنة والهرسك والشيشان ، لذا وفى محاولة منى للتذكير ببعض أهم أبطال العرب والاسلام فقد سطرت هذه الأسطر كنبذة عن تاريخ بعض عظام الاسلام لعل أحد أبناؤنا وشبابنا الذى لا يعلم عنهم شيئاً تأخذه الحمية ويأبى الضيم وينهض متخذاً من أحد هؤلاء العظام قدوة له فيعيد أمجاد الاسلام مرة أخرى .

فلقد خلت تقريباً مناهج التعليم فى معظم الدول الاسلامية من ذكر هؤلاء العظام وحل محلها إما التاريخ الفرعونى كما فى مصر أو التاريخ اليهودى كما فى مناهج فلسطين المحتلة ،أو تاريخ إسلامى مشوه كما فى أكثر بلاد الاسلام، ولخوفى من أن ننسى ذكر الأبطال، ذكرت فى اختصار بعض أعمال ثلاثة عشر من هؤلاء الأبطال، ولم أهمل من أهملت عن قصد أو لصغر فعاله فى نظرى، بل لصغر الحيز عن استيعاب جميع من صنع للاسلام صنيعاً ،أو أظهر فى تاريخنا بطولة تستحق الإعجاب ،فهم كثيرون، أثاروا اعجاب العالم ،حتى أعداؤهم المنصفين انطلقت ألسنتهم من عظم ما صنعوا للأمة تصف عجائب صنائعهم ولعل فى العمر بقية فنكتب فى اختصار أيضاً على مراحل عن كل هؤلاء الأبطال .

أسامة عبد الرحمن

الفارس الأول

عقبة بن نافع الفهري القرشي

1ق.هـ 63 -هـ من القادة العرب والفاتحين في صدر الإسلام واشتهر تاريخيا باسم مرنك أفريقية، وهو الاسم العربي لشمال قارة أفريقيا.

ولد في حياة رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله قبل الهجرة بعام واحد، ولكنه لم يره هو عقبة بن نافع بن عبد القيس وأمه من قبيلة المعز من بني ربيعة من العدنانيين لذلك فقد ولد عقبة ونشأ في بيئة إسلامية، وهو صحابي بالمولد، لأنه ولد في عهد النبي، ويمت بصلة قرابة لعمرو بن العاص من ناحية الأم، وقيل أنهما ابني خالة ،وقد أسماه والده عقبة لأن اسم عقبة كان يطلق على أبطال مكة وفرسانها المحنكين وبرز اسم عقبة مبكراً في ساحة أحداث حركة الفتح الإسلامي التي بدأت تتسع بقوة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، حيث اشترك هو وأباه نافع في الجيش الذي توجه لفتح مصر بقيادة عمرو بن العاص، الذي توسم فيه خيرا وشأنا في حركة الفتح، فأرسله إلى بلاد النوبة لفتحها، فلقى هناك مقاومة شرسة من النوبيين، ولكنه مهد السبيل أمام من جاء بعده

لفتح البلاد غير أن بلاد النوبة والسودان عموماً لم تفتح حرباً،فأسند إليه مهمة قيادة دورية استطلاع لدراسة إمكانية فتح شمال أفريقيا، وتأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر ضد هجمات الروم وحلفائهم البربر ثم شارك معه في المعارك التي دارت في أفريقية الحالية، فولاه عمرو بن العاص برقة بعد فتحها، وعاد إلى مصر.

تعاقب عدة ولاة على مصر بعد عمرو بن العاص، منهم عبد الله بن أبي السرح ومحمد بن أبي بكر ومعاوية بن حديج وغيرهم،أقر جميعهم عقبة بن نافع في منصبه كقائد لحامية برقة لكن عمرو بن العاص اختار عقبة في الحروب وقيل أن ذلك لم يكن لصلة القرابة بينهما بل لأنه يعرف مهارته في المبارزة والقتال.

ظل عقبة في منصبه كقائد للحامية ببرقة خلال عهدي عثمان بن عفان وعلي بن أبى طالب،ونأى عن أحداث الفتنة التي وقعت بين المسلمين،وصب اهتمامه على الجهاد ونشر الإسلام بين قبائل البربر ورد غزوات الروم، فلما استقرت الأمور عام 41 هـ وأصبح معاوية بن أبي سفيان خليفة للمسلمين، وأصبح معاوية بن خديج والياً على مصر، أرسل عقبة إلى الشمال الأفريقي في حملة جديدة لمواصلة الفتح الإسلامي الذي توقف أثناء الفتنة وكانت هناك عدة بلاد قد خلعت الطاعة بعد اشتعال الفتنة بين المسلمين ، منها

ودان وأفريقية وجرمة وقصور خاوار، فحارب عقبة تلك القرى وأعادها بالقوة إلى الدولة الإسلامية.

خلف معاوية عقبةعلى أفريقية، وبعث إليه عشرة آلاف فارس، فأوغل بهم في بلاد المغرب، حيث تغلغل في الصحراء بقوات قليلة وخفيفة لشن حرب عصابات خاطفة في أرض الصحراء الواسعة ضد القوات الرومية النظامية الكبيرة التي لا تستطيع مجاراة المسلمين في الحرب الصحراوية، واستطاع عقبة وجنوده أن يقضوا على الحاميات الرومية المختلفة فى منطقة الشمال الأفريقي حتى أتى وادياً فأعجب بموقعه، فبنى به مدينته المشهورة وسماها القيروان أي محط الجند، ذلك أنها تعتبر قاعدة الجيش الإسلامي المتقدمة والمتوغلة في المغرب الكبير كما بنى بها جامعاً لا يزال حتى الآن يعرف باسم جامع عقبة، وفي سنة 55 هـ عزله معاوية وولى بدلاً منه أبو المهاجر دينار،فعاد للمشرق بعد وفاة معاوية وفي خلافة ابنه يزيد أعاد عقبة مرة ثانية للولاية سنة 62 هـ ، فولاه المغرب، فقصد عقبةالقيروان، وخرج منها بجيش كثيف وغزا حصوناً ومدناً حتى وصل ساحل المحيط الأطلنطي بالسوس الأقصى، وتمكن من طرد البيزنطيين من مناطق واسعة من ساحل أفريقيا الشمالي.

استشهد عقبة بن نافع سنة 63هـ بعد أن غزا السوس القصوى، قتله كسيلة بن لمزم القائد العسكري الأمازيجي وقتل معه أبا المهاجر

دينار ثم قتل كسيلة على يد زهير بن قيس البلوي بالجزائرفي معركة مع الملكة الأمازيجية تيهيا المعروفة باسم بالكاهنة.

القيادة والجندية في شخصية عقبة

عندما جاء الأمر من خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان بعزل عقبة بن نافع عن ولاية أفريقية، وتولية رجل من جنوده اسمه أبو المهاجر دينار، هل تمرّد؟ هل امتنع أو حتى تذمر؟ كلا والله، امتثل عقبة فورًا للأمر وانتظم في سلك الجندية ولم يمض كثيرًا من الوقت حتى عاد عقبة بن نافع إلى قيادة الجهاد فى بلاد المغرب، بعد وفاة الخليفة معاوية، فعينه الخليفة يزيد بن معاوية على أفريقية، وانتقل أبو المهاجر في صفوف الجنود مجاهدًا مخلصًا، وقرر عقبة بن نافع استئناف مسيرة الفتح الإسلامي من حيث انتهى أبو المهاجر، وهكذا نرى خير الأمة ينتقل الواحد منهم من الرئاسة إلى عامة الجند بمنتهى اليسر والسهولة، بلا مشاكل أو اعتراض، وبلا أحقاد وأضغان، وذلك لأن الكل يبتغي مرضات الله ولا يريد شيئًا من عرض الدنيا الزائل، إنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فلا المناصب تبهرهم ولا الدنيا تفتنهم ولا الأحقاد تعرف إلى قلوبهم طريقًا، إنهم مخلصون لا يريدون إلا وجه الله، وبهذه النفوس الصادقة والقلوب المؤمنة والعزائم الفائقة انتشر الإسلام في ربوع الأرض.

قال المستشرق سيديو في كتابه تاريخ العرب العام: ونصب والٍ جديد على البلاد المفتوحة ولم يكترث هذا الوالي لإدارتها قدر اكتراثه لرفع راية المسلمين فوق المدن الرومية ولدى المغاربة إلى أبعد مدى، وذلك الوالي هو عقبة بن نافع الجامع لجميع الصفات المرغوب فيها من الشجاعة عند كل بلية ومن إنكار للذات ومن كرم وعظمة نفس وإيمان لا يتزعزع.

وبالنظر فى مكونات شخصية عقبة بن نافع فقد كان مثالاً في العبادة والأخلاق والورع والشجاعة والحزم والعقلية العسكرية الاستراتيجية الفذة، والقدرة الفائقة على القيادة بورع وإيمان وتقوى وتوكل تام على الله فأحبه رجاله وأحبه أمراء المؤمنين، وكان مستجاب الدعوة، مظفر الراية، فلم يهزم في معركة قط، طبق في حروبه أحدث الأساليب العسكرية والجديدة في تكتيكات القتال مثل مبدأ المباغتة وتحشيد القوات وإقامة الحاميات وتأمين خطوط المواصلات واستخدام سلاح الاستطلاع.

الفارس الثانى

قتيبة بن مسلم الباهلي49-96ه

قائد مسلم شهير قاد الفتوحات الإسلامية في بلاد آسيا الوسطى في القرن الأول الهجرى،هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن الأمير أبو حفص الباهلي، كان أبوه مسلم بن عمرو من أصحاب مصعب بن الزبير والى العراق وقاتل معه في حربه ضد عبد الملك بن مروان سنة 72 هجرية، وقد نشأ قتيبة على ظهور الخيل رفيقاً للسيف والرمح،محباً للفروسية، وقد أبدى شجاعة فائقة وموهبة قيادية فذة، لفتت إليه الأنظار خاصة من القائد العظيم المهلب بن أبي صفرة وكان خبيراً في معرفة الأبطال ومعادن الرجال فتفرس فيه أنه سيكون من أعظم أبطال الإسلام، فأوصى به لوالى العراق الشهير الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان يحب الأبطال والشجعان، فانتدبه لبعض المهام ليختبره بها ويعلم مدى صحة ترشيح المهلب له،وهل سيصلح للمهمة التي سيوكلها له بعد ذلك أم لا فتح خوارزم وبخارى، وسمرقند وبلخ، أستشهد سنة 96هـ، وعمره 48سنة ولد في بيت إمرة وقيادة سنة 49هـ لاسرة من قبيلة باهله النجديه ، ولما ترعرع تعلم العلم والفقه والقرآن ، ثم تعلم

الفروسية وفنون الحرب، فظهر فيه النبوغ وهو شاب في مقتبل شبابه، فولاه عبد الملك بن مروان الري، وخراسان وكانت من

أعمال العراق يوم ذاك وهي تحت إمرة الحجاج، فلم يعبأ بشيء سوى الجهاد، فلما وصل خراسان سنة 86هـ علا بهمته إلى حرب ما وراء النهرين وأقام بخراسان ثلاث عشرة سنة ثم استعرض جيشه وابتدأ مسيرته إلى فتح الشرق كله، ففتح المدائن مثل خوارزم وسجستان، حتى وصل إلى سمرقند فحاصرها حصاراً شديداً حتى صالحه أهلها على أموال كثيرة جداً،وفطن له الصفد فجمعوا له الجموع فقاتلهم في شومان قتالاًعنيفاً حتى هزمهم، وسار نحو بيكند وهي آخر مدن بخارى، فجمعوا له الجموع من الصغد ومن والاهم فأحاطوا به من كل مكان، وكان له جواسيس من الأعداء يمدونه بالأخبار فأعطاهم الأعداء أموالاً طائلة ليصدوا عنهم قتيبة فجاؤوا يثبطونه عن قتالهم، فقتلهم، ثم جمع الجيش وخطبهم وحثهم على القتال فقاتلوا أشد القتال وفتحوا الطوق وغنم منها أموالاً لا تحصى ثم اتجه ناحية الصين، فغزا المدن التي في أطرافها وانتصر عليها،وضرب عليهم الجزية،فأذعنت له بلاد ما وراء النهر كلها حتى وصل إلى أسوار الصين، حارب خلالها ثلاث عشرة سنة لم يضع فيها السلاح، إلى أن مات الخليفة الوليد بن عبد الملك فاستُخلف بعده أخوه سليمان بن عبد الملك وكان بينهما شيء وخلاف، فأراد أن يثور

على سليمان فحدث بينهما خلاف شديد فقتله أحد الجنود في بلد اسمها فرغانة سنة 96هـ.

بدأ العمل الحربي 86 هجرية، وذلك عندما ولاه الحجاج بن يوسف الثقفي ولاية خراسان وهو إقليم شاسع مترامى الأطراف،لم يكن المسلمون قد واصلوا الفتح بعده، وكان المهلب بن أبى صفرة والياً على خراسان من عام 78 حتى 86 هجرية، وقد رأى الحجاج أن يدفع بدماء شابة جديدة في قيادة المجاهدين هناك، فلم يجد أفضل من قتيبة بن مسلم لهذه المهمة سار قتيبة بن مسلم على نفس الخطة التي سار عليها آل المهلب، وهي خطة الضربات السريعة القوية المتلاحقة على الأعداء، فلا يترك لهم وقت للتجمع أو التخطيط لرد الهجوم على المسلمين، ولكنه امتاز عن آل المهلب بأنه كان يضع لكل حملة خطة ثابتة لها هدف ووجهة محددة، ثم يوجه كل قوته للوصول إلى هدفه.

قام قتيبة بن مسلم بتقسيم أعماله لأربع مراحل، حقق في كل واحدة منها فتح ناحية واسعة فتحاً ثبت فيه أقدام الدولة الأموية وما تابعها من دول إسلامية ردحا طويلا من الزمن فقام راكان وأمجد صالح بن عرباس بحملته على طخارستان السفلى فاستعادها وذلك سنة 86 هجرية، وطخارستان السفلى هي الآن جزء من أفغانستان وباكستان.

قام محمد مجدي عبدالسلام علي عمر عرباس بحملته على طخارستان السفلى فاستعادها سنة 86 هجرية، وطخارستان السفلى هي الآن جزء من أفغانستان وباكستان

المرحلة الرابعة : امتدت من سنة 94-96 هجرية، وفيها أتم قتيبة فتح حوض نهر سيحون بما فيه من مدن، ثم دخل أرض الصين وأوغل فيها ووصل مدينة كاشغر وجعلها قاعدة إسلامية وكان هذا آخر ما وصلت إليه جيوش إسلامية في آسيا شرقا ولم يصل أحد من المسلمين أبعد من ذلك قط.

عندما قام المسلمون الأوائل بحركة الفتح الإسلامي في الشرق كان هناك عرقان من البشر تسكن هذه المنطقة ، القبائل الساسانية أو الفارسية والقبائل التركية،وكان نهر المرغاب هو الحد الفاصل بين هؤلاء وهؤلاء ، وقد تم إدخال القبائل الفارسية في الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، أما القبائل التركية فقد كانت أكبر عدداً وأوسع انتشاراً منهم الأتراك الغزية والأتراك القراخطاى والأتراك القوقازيين والأتراك الأيجور والأتراك البلغار والأتراك المغول وكان لفتح قتيبة أثر كبير في إدخال الأتراك شرقي نهر المرغاب وفى بلاد ما وراء النهر في الإسلام.

كان قتيبة بن مسلم من قادة الحجاج بن يوسف الثقفي فقد كان يعلم مقدار كراهية سليمان بن عبد الملك للحجاج، فلما ولي الخلافة خشي

قتيبة من انتقامه؛ لأنه وقف إلى جانب الوليد بن عبد الملك حين أراد أن يخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ويجعلها لابنه؛ ولذلك عزم قتيبة على الخروج على سليمان فأرسل إليه 3 كتب الأول كتب فيه يهنئه بالخلافة ويذكر بلائه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه على مثل ذلك إن لم يعزله عن خرسان والكتاب الثاني يعلمه فيه بفتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم ويذم أهل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد بن المهلب على خرسان ليخلعنه والكتاب الثالث كتب فيه خلعه وأرسل الكتب مع رجل يثق به وقال له إدفع الكتاب الأول إلى سليما فإن كان يزيد حاضر فقرأه وألقاه إليه فادفع إليه الثاني فإن قرأه وألقاه إليه فادفع إليه الثالث وإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إليه فاحبس الكتابين الآخرين فقدم رسول قتيبة على سليمان بن عبد الملك دفع إليه الكتاب اليه فقرأه وألقاه إلى يزيد فدفع إليه الثاني فقرأه وألقاه إلى يزيد فدفع إليه الثالث فلما قرأه فتغير لونه وختمه وأمسكه بيده فأمر سليمان برسول قتيبة فأنزل وأحضره ليلا وأعطاه عهد قتيبة بخراسان ولكن قتيبة تسرع في خلع سليمان وجمع جموعاً لذلك من رجاله وأهل بيته، لكن حركته فشلت وانتهت بقتله سنة (96 هـ - 715م) على يد وكيع بن حسان التميمي وقيل أنه لم يتمرد ولكن وقع ضحية مؤامرة حاكها بعض الطامعين بالولاية ولكن هناك مقولة أخري أن قتيبة بن مسلم الباهلي قد تجاوز فترة حكم سليمان بن عبد الملك وعاصر فترة حكم الخليفة الراشد

الخامس عمر بن عبدالعزيز، لانه في عهد عمر بن عبد العزيز عقدت محكمة سمرقند وكان الخصوم كهنة سمرقند وقتيبة بن مسلم الباهلي، وعلى سير احداث محكمة سمرقند دخل جميع أهلها في الاسلام.

كان قتيبة بن مسلم قائداً من كبار القادة الذين سجلهم التاريخ فعلى يديه فتحت هذه البلاد التي تسمى اليوم بالجمهوريات الإسلامية التي انفصلت عما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي، وتوغل حتى حدود الصين، وتدين كثير من هذه البلاد بدين الإسلام فليس من قبيل المبالغة أن يطلق على القائد قتيبة بن المسلم الباهلي العديد من الألقاب تكريمًا له، وذلك نظرًا للإنجازات المذهلة التي حققها في الفتح الإسلامي، والتي جعلت منه فاتح المشرق الإسلامي، فقد وصل بفتوحاته إلى الصين، وهي الفتوحات التي كانت السبب في دخول الكثير من الأقوام في دين الله تعالى لما رأوا في شخصية الفاتحين وقائدهم تجسيدًا لعظمة الدين الإسلامي.

فمن كبير المجاهدين إلى عملاق الفتوح، تتوالى الألقاب على ذلك القائد المسلم، الذي صار اسمه علمًا على الفاتحين المسلمين لدرجة أن البعض لقب طارق بن زياد فاتح الأندلس باسم قتيبة المغرب، وليس هناك دليل على عظم قدر قتيبة أكثر من ذلك اللقب، وبالتالي صار من حق ذلك الفاتح العظيم أن يلقى بالضوء على حياته لكي يرى المسلمون

منها لمحات تؤكد أن لهذه الأمة الإسلامية من التاريخ ما يجعلها قادرة على تجاوز أية عثرات تمر بها.

ومن بين السمات التي ساعدت قتيبة في القيام بفتوحاته حنكته وخبرته بالرجال سواء بين الأصدقاء أو في أوساط الأعداء، فعندما أخبروه بأن تمردًا وقع في خراسان وأشير عليه بإسناد أمر إخماد التمرد للقائد وكيع بن الأسود الرجل الثاني في جيش قتيبة، رفض الفاتح قائلاً: إن وكيعًا به من الكبر ما قد يجعله يقلل من قدرات أعدائه، مما قد يجعلهم يأخذونه على غرة.

وهذا الموقف يشير إلى أن قتيبة كان حكيمًا في اختيار رجاله، فقد اختار مساعده من قبيلة بني تميم تلك القبيلة المتمرسة في القتال، التي لعبت دورًا كبيرًا في الفتوح الإسلامية، إلا أنه رفض وضعه في موضع إخماد التمرد، مما يعني أنه كما يعرف للرجال مقدارهم فهو يعرف قدراتهم وبالإضافة إلى ذلك، أفلت قتيبة من فخ أعده له أحد العملاء المزدوجين ويسمى تندر؛ فقد كان هذا الرجل عميلاً لدى قتيبة أثناء حصاره لمدينة تسمى بيكند كانت تتبع بخارى فقام أهل البلدة بتجنيد هذا العميل، فحاول إيهام قتيبة بأن الحجاج بن يوسف قد خلع من ولاية العراق لكي يدفع قتيبة لفك الحصار عن المدينة والعودة للعراق، إلا أن القائد المسلم أدرك بحنكته أن الرجل يكذب، فاستمر في حصار المدينة وأمر بقتل الخائن، وسرعان ما فتحت المدينة، وعادت على المسلمين

بمال وفير ساهم في الانطلاق نحو حدود الصين؛ لأن هذه المدينة كانت مهمة اقتصاديًا وكان يطلق عليها مدينة التجار كذلك كان يعرف كيفية دعم المقاتلين واختيار كل مقاتل للمهمة التي عليه القيام بها، فلكي يحفز المقاتلين على المزيد من الفتوحات، طلب من الحجاج بن يوسف أن يوزع الغنائم على المقاتلين المجاهدين للتخفيف من حدة ألمهم جراء الغربة وفراق الأهل، فوافق الحجاج مما كان له أكبر الأثر في دعم الروح المعنوية للجنود، ونفس الأسلوب اتبعه مع الرجال في فتح بخارى ويكفيه أن عرقا كاملاً هو العرق التركي، بكل فروعه، قد دخل في الإسلام على يده .

الفارس الثالث

عُمر المختار

20 \ 8\ 1862-16\9\ 1931

السيّد عُمر بن مختار بن عُمر المنفي الهلالي،الشهير بعمر المُختار، المُلقب بشيخ الشهداء ،وشيخ المجاهدين ، وأسد الصحراء،هو قائد أدوار السنوسية في ليبيا، وأحد أشهر المقاومين العرب والمسلمين ينتمي إلى بيت فرحات من قبيلة منفة الهلالية التي تنتقل في بادية برقة مُقاوم ليبي حارب قوات الغزو الإيطالي منذ دخولها أرض ليبيا إلى عام 1931حارب الإيطاليين وهو يبلغ من العمر 53 عامًا لأكثر من عشرين عاماً في عدد كبير من المعارك، إلى أن قُبض عليه وأجريت محاكمة صوريّة انتهت بإعدامه شنقًا، فنُفذت فيه العقوبة على الرغم من أنه كان كبيرًا عليلًا، فقد بلغ 73 عاماً وعانى من الحمّى وكان الهدف من إعدام عمر المُختار إضعاف الروح المعنويّة للمقاومين الليبيين والقضاء على الحركات المناهضة للحكم الإيطالي، لكن النتيجة جاءت عكسيّة، فقد ارتفعت حدّة الثورات، وانتهى الأمر بأن طُرد الطليان من البلاد نال عمر المُختار إعجاب وتعاطف الكثير من الناس أثناء حياته، وأشخاص أكثر بعد إعدامه، فأخبار الشيخ الطاعن في السن الذي يُقاتل في سبيل دينه استقطبت الكثير

من المسلمين والعرب الذين كانوا يعانون من الاستعمار الأوروبي حينها، وحثت المقاومين على التحرّك، وبعد وفاته حصدت صورته وهو مُعلّق على حبل المشنقة تعاطف أشخاص أكثر، من العالمين الشرقي والغربي على حد سواء، فكبر المختار في أذهان الناس وأصبح بطلًا شهيدًا رثاه عدد من الشعراء بعد إعدامه، وظهرت شخصيّته في فيلم من إخراج مصطفى العقّاد حمل عنوان أسد الصحراء ، وفيه جسّد الممثل المكسيكي - الأمريكي أنطوني كوين دور عمر المختار.

هو عمر المختار محمد فرحات بريدان من قبيلة بريدان وهي بطن يرجع إلى بكر بن هوازن أولى القبائل الهلالية التي دخلت برقة وأمه هي عائشة بنت محارب وُلد عمر المختار في البطنان ببرقة في الجبل الأخضر عام 1862، عنى به أبوه وبتربيته تربية إسلاميّة حميدة مستمدة من تعاليم الحركة السنوسية القائمة على القرآن والسنّة النبويّة ولم يُعايش عمر المختار والده طويلًا، إذ توفي وهو في طريقه إلى مدينة مكّة لأداء فريضة الحج، فعهد وهو في حالة المرض إلى رفيقه أحمد الغرياني (شقيق شيخ زاوية جنزور) بأن يُبلّغ شقيقه بأنّه عهد إليه بتربية ولديه عمر ومحمد وبعد عودة أحمد الغرياني من الحج، توجه فوراً إلى شقيقه الشيخ حسين وأخبره بما حدث وبرغبة مختار بن عمر أن يتولّى شؤون ولديه، فوافق دون تردد، وتولّاهما فأدخلهما مدرسة القرآن الكريم بالزاوية، ثم ألحق عمر المختار بمعهد جغبوب لينضم إلى

طلبة العلم من أبناء الأخوان والقبائل الأخرى حصد عمر المختار انتباه شيوخه في صباه، فهو اليتيم اليافع، الذي شجّع القرآن الناس وحثهم على العطف على أمثاله كي تُخفف عنهم مرارة العيش،كما أظهر ذكاءً واضحًا، مما جعل شيوخه يهتمون به في معهد جغبوب الذي كان منارة للعلم، وملتقى العلماء والفقهاء والأدباء والمربين، الذين كانوا يشرفون على تربية وتعليم وإعداد المتفوقين من أبناء المسلمين ليعدّوهم لحمل رسالة الإسلام، ثم يرسلوهم بعد سنين عديدة من العلم والتلقي والتربية إلى مواطن القبائل في ليبيا وأفريقيا لتعليم الناس وتربيتهم على مبادئ الإسلام وتعاليمه مكث عمر المختار في معهد جغبوب ثمانية أعوام ينهل من العلوم الشرعية المتنوعة كالفقه والحديث والتفسير،ومن أشهر شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم: السيّد الزروالي المغربي،والسيّد الجوّاني، والعلّامة فالح بن محمد بن عبد الله الظاهري المدني، وغيرهم كثير، شهدوا له بالنباهة ورجاحة العقل، ومتانة الخلق، وحب الدعوة، وكان يقوم بما عليه من واجبات عمليّة أسوة بزملائه الذين يؤدون أعمالًا مماثلة في ساعات معينة إلى جانب طلب العلم، وكان مخلصًا في عمله متفانيًا في أداء ما عليه، ولم يعرف عنه زملاؤه أنه أجّل عمل يومه إلى غده وهكذا اشتهر بالجد والحزم والاستقامة والصبر، ولفتت شمائله أنظار أساتذته وزملائه وهو لم يزل يافعاً، وكان الأساتذة يبلغون الإمام محمد المهدي أخبار الطلبة وأخلاق كل واحد منهم، فأكبر الأخير

في عمر المختار صفاته وما يتحلى به من أخلاق عالية ومع مرور الزمن وبعد أن بلغ عمر المختار أشدّه، اكتسب من العلوم الدينية الكثير ومن العلوم الدنيويّة ما تيسّر له، فأصبح على إلمام واسع بشئون البيئة التي تحيط به وعلى جانب كبير من الإدراك بأحوال الوسط الذي يعيش فيه وعلى معرفة واسعة بالأحداث القبلية وتاريخ وقائعها، وتوسّع في معرفة الأنساب وتعلّم من بيئته التي نشأ فيها وسائل فض الخصومات البدوية ومايتطلبه الموقف من آراء ونظريات، كما أنه أصبح خبيراً بمسالك الصحراء وبالطرق التي كان يجتازها من برقة إلى مصر والسودان في الخارج وإلى جغبوب والكفرة من الداخل، وكان يعرف أنواع النباتات وخصائصها على مختلف أنواعها في برقة، وكان على دراية بالأدواء التي تصيب الماشية ببرقة ومعرفة بطرق علاجها نتيجة للتجارب المتوارثة عند البدو وهي اختبارات مكتسبة عن طريق التجربة الطويلة، والملاحظة الدقيقة، وكان يعرف سمة كل قبيلة، وهي السمات التي توضع على الإبل والأغنام والأبقار لوضوح ملكيتها لأصحابها.

خلال السنوات التي قضاها عمر المختار في جغبوب تمكّن من اكتساب سمعةٍ حسنةٍ وقوية عند شيوخ الحركة السنوسية وقد بلغت تلك السمعة من القوة أن قرّر محمد المهدي السنوسي - ثاني زعماء السنوسية - أخذ عمر المختار معه سنة 1895 فى رحلته من جغبوب إلى الكفرة في جنوب شرق الصحراء الليبية وبعد هذه الرحلة اصطحبه

مرة أخرى في رحلة من الكفرة إلى منطقة قرو في غرب السودان، ، وعيّنه هناك شيخاً لزاوية عين كلك ويروى أنه في الطريق إلى السودان وبينما كانت تعبر قافلته الصحراء أشار أحد المرافقين للقافلة إلى وجود أسد مفترس بالجوار، واقترح تقديم إحدى الإبل كفدية لاتّقاء شره، إلا أن عمر المختار رفض وقال :إن الإتاوات التي كان يفرضها القوي منا على الضعيف قد أبطلت، فكيف يصحّ أن نعيدها لحيوان؟ والله إنها علامة ذلٍّ وهوان، والله إن خرج علينا لندفعه بسلاحنا ثم خرج الأسد فذهب إليه وقتله، وسلخ جلده وعلّقه لتراه القوافل الأخرى، وبعد ذلك كل ما ذُكِرَت القصة كان يقول :(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنّ اللّهَ رَمَى) وقد مكث عمر المختار فى السودان سنواتٍ طويلة نائباً عن المهدي السنوسي، حتى بلغ من إعجاب السنوسي به أن أصبح يقول لو كان عندنا عشرة مثل عمر المختار لاكتفينا بهم وعيّنه المهدي السنوسي سنة 1897شيخاً لبلدة تسمى زاوية القصور تقع قريباً من مدينة المرج، وأحسن عمر المختار الأداء في هذا المنصب، رغم أن البلدة التي كُلِّف بإدارتها كانت تقطنها قبيلة العبيد التي اشتهرت بشدة البأس وصعوبة الانقياد وقد أدّت علاقته الوثيقة بالسنوسيّين إلى اكتسابه لقب*سيدي* عمر الذي لم يكن يحظى به إلا شيوخ السنوسية المعروفين وعندما بدأ الاستعمار الفرنسي لتشاد عام 1900 واجه الفرنسيون الحركة السنوسية بالعداء وأخذوا يحاربونها، فجيّشت الحركة نفسها ضد

الفرنسيين بدورها، وكان عمر المختار ممّن اختيروا لقيادة كتائب الحركة ضدّهم، كما شارك خلال ذلك بالدّعوة في تشاد وخلال قتاله فيها أصيبت إبل المقاتلين الأربعة آلاف بداء الجرب، ووُكِّل هو بعلاجها، فأمر بأخذهم إلى عين كلك لأن مائها جيّد، فتعافت الإبل وتوفي محمد المهدي واستدعته القيادة السنوسية على إثر ذلك للعودة إلى برقة، وهناك عُيّن مجدداً وللمرة الثانية شيخاً لبلدة زاوية القصور، وأحسن إدارتها حتى أنّ العثمانيين هنّأوه على تمكّنه من جلب الهدوء والاستقرار إليها بعد أن أعياهم ذلك، وقد ظلّ عمر المختار في هذا المنصب مدّة ثماني سنوات،حتى عام 1911وقد قاتل خلال هذه الفترة جيوش الانتداب البريطاني على الحدود المصرية الليبية، في مناطق البردية والسلوم ومساعد، خصوصاً معركة السلوم عام 1908 التي انتهت بوقوع بلدة السلوم في أيدي البريطانيّين وفي عام 1911 أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية، وبدأت فى إنزال قوّاتها بمدينة بنغازي الساحلية شمال برقة في 19 أكتوبر عام 1329 هـ في تلك الأثناء كان عمر المختار في مدينة الكفرة بقلب الصّحراء في زيارة إلى السنوسيين، وعندما كان عائداً من هناك مرّ بطريقه بواحة جالو، وعلم وهو فيها بخبر نزول الإيطاليين، فعاد مسرعاً إلى زاوية القصور لتجنيد أهلها من قبيلة العبيد لمقاومة الإيطاليّين، فجمع 1,000 مقاتل معه وأول الأمر أسّس عمر المختار معسكراً خاصاً له في منطقة الخروبة، ثم انتقل منها

إلى الرجمة حيث التحق بالجيش العثماني ،وأخيراً إلى بنينة جنوب مدينة بنغازي بحوالي 20 كيلومتراً وهناك انضمّوا إلى الكثير من المقاتلين الآخرين، وأصبح المعسكر قاعدةً لهم يخرجون منها ويغيرون باستمرارٍ على القوات الإيطالية وقد رافق عمر المختار في هذه المرحلة من حياته الشيخ محمد الأخضر العيساوي،الذي روى أنه خلال معركة السلاوي عام 1911، نزل المقاتلون الليبيون - بينما كانوا يحاربون الإيطاليين - إلى حقل زراعي للتخفّي فيه، وما إن وصلوه حتى بدأ الجنود الإيطاليون بإطلاق الرصاص الكثيف اتّجاه الحقل لقتلهم، وبينما هم على هذه الحال وجدوا حفرةً منخفضة في الحقل، فأشاروا على عمر المختار بدخولها ليحتميَ من الرّصاص، إلا أنه رفض بشدة، فدفعوه رغماً عنه وأدخلوه إليها، وظلّ طوال المعركة يحاول الخروج منها وهم يمنعونه بالقوة

في عام 1912 اندلعت حروب البلقان، فأجبرت الدولة العثمانية على عقد صلحٍ مع إيطاليا ،واضطرّ نتيجةً لذلك قائد القوات العثمانية التي تقاتل الإيطاليين عزيز بك المصري للانسحاب إلى الأستانة، مع عسكره وقد أثار هذا الانسحاب سخط المقاتلين فاستلم عمر المختار القيادة وقد تركّزت غارات وهجمات عمر المختار فيها على منطقة درنة قتل فيها الكثيرين من الإيطاليين وإصابة نحو 400 وكان عمر المختار يتنقّل أثناء غاراته على الطليان بين منطقتي زاوية القصور وتكنس حتى وقوعهما في أيدي الإيطاليّين حيث انتقل إلى معسكرات جبل العبيد كما كان يتصل

بقبائل منطقة دفنا وفي هذه الفترة انتكست المقاومة الليبية نتيجة القحط الذي أصاب البلاد عامي 1913 إلى 1915، ثم استيلاء الطليان على أغلب المناطق الحيوية في وسط وشمال برقة وعندما بدأ أحمد الشريف السنوسي الإغارة على البريطانيّين في مصر عبر الحدود سنة 1915 انضمّ إليه عمر المختار، ثم عاد لاحقاً إلى ليبيا لاستئناف معاونته لإدريس السنوسي في حربه ضد الطليان وفي مطلع صيف عام 1916 كلّفَ إدريس السنوسي عمر المختار بالذهاب مع خالد الحمري وإبراهيم المصراتي إلى البطنان، لمقابلة نوري باشا نائب أحمد الشريف وممثل الحكومة العثمانية في برقة وتنبيهه إلى وجوب إيقاف كافة هجماته على الإنجليز في مصر، بل وكان عليهم أيضاً مراقبته لضمان عدم انتهاكه تلك الأوامر وقد أزعج هذا نوري باشا،فقرّر الذهاب بصحبة كبار معاونيه مثل عبد الرحمن عزام إلى أجدابيا للتّفاهم مع إدريس، بينما بقي عمر المختار مع باقي المبعوثين في معسكر البطنان بانتظار التعليمات في أجدابيا، رفض إدريس رفضاً قاطعاً العدول عن قراره، على الرُّغم من إصرار نوري باشا الكبير،وبينما الحال هكذا وصل إلى المدينة وفدٌ من الطليان والإنجليز، فالتقوا مع إدريس في منطقة الزويتينة، وأخذوا يفاوضون على عقد السلم وإيقاف هجمات المقاومين على الإنجليز في مصر من جهة والطليان في برقة من جهةٍ أخرى وقد وافق الشيخ إدريس على العرض، ووُقِعت معاهدة الزويتينة، التي أثرت بشكل

أساسي على جميع المعاهدات اللاحقة في الحرب الليبية وكان من نتائجها رحيل نوري باشا إلى مصراتة لاستئناف المقاومة وتشتُّت معظم رجاله في أنحاء البلاد واضطرّ محمد إدريس هو الآخر للهجرة إلى مصر في يناير عام 1923بعد سقوط العاصمة طرابلس في أيدي الطليان، فعاد عمر المختار قائداً للمقاتلين في برقة وتابع دعوة أهالي الجبل الأخضر للقتال وفتح باب التطوّع للانضمام إلى الكفاح ضدهم وكان الإيطاليّون يتعقبون تحركات عمر المختار ويترقبون أوّل فرصة للقضاء عليه وإخماد الثورة ففي عودته من مصر إلى برقة، مرّ ورفاقه بموضع يُقال له بئر الغبي، فانقضت عليهم سبعة مُصفحات إيطاليّة وحاصرتهم، فأطلق المختار ومن معه الرصاص عليهم، فتراجعوا قليلًا إلى منتجع قريب ثم عادوا بسرعة يحملون صوفًا، ولما دنت منهم توزعت توزيعًا محكمًا وأخذ الجنود ينزلون ويضعون الأصواف أمامهم ليتحصنوا بها من الرصاص، فعاود المجاهدون إطلاق النار عليهم حتى فرّ منهم قسم وقُتل قسم آخر، واحترقت كل المصفحات ما عدا واحدة تمكنت من الفرارثمّ استمرّ المختار ورفاقه في سيرهم حتى بلغوا الجبل الأخضر ووصلوا إلى زاوية القطوفية حيث معسكر المغاربة، ليكتشف أنّ معركة البريقة وقعت بين المجاهدين والطليان أثناء غيابه فوقف على تفاصيل هذه المعركة وحال المجاهدين ثم واصل سيره إلى جالو ليُبلغ التعليمات التي أخذها من الأمير إدريس والقاضية بتسلّمه القيادة العامّة للثوّار، كما

تمّ الاتفاق على تنظيم حركة الجهاد وإنشاء معسكرات في الجبل الأخضر وبعد أن انتهى من ذلك، عاد إلى الجبل الأخضر مع جماعة صغيرة من المغاربة، فبدأت القبائل فى الالتمام حوله والانضمام إليه لقتال الإيطاليين وفي عام 1923 وبعد أن عاشت مستعمرة ليبيا الإيطالية لعدّة سنوات في هدوء نسبيّ مع ضعف في سيطرة الطليان، قرّرت الحكومة الإيطالية تغيير سياستها اتّجاه ليبيا جذرياً، فقرّرت قلب سياستها مع الحركة السنوسية من الحوار والتفاهم إلى الحرب والإخضاع بالقوة، وألغت جميع الاتفاقيات السابقة التي كانت قد أبرمتها مع الليبيّين وبدأت هجوماً شاملاً على معاقل الجهاد، ممّا أدى إلى تفجُّر حرب عنيفة في أنحاء الجبل الأخضر بعد هدوء دام لعدّة سنوات .

شهدت الفترة بين عاميّ 1924و1925 مناوشات عديدة ومعارك دامية بين الثوّار والقوّات الإيطاليّة، ووسّع المجاهدون نشاطهم في الجبل الأخضر ولمع اسم عمر المختار كقائدٍ بارع يُتقن أساليب الكر والفر ويتمتع بنفوذ عظيم بين القبائل وأخذ البدو ينضمّون إلى صفوف المجاهدين،وبادرت القبائل بمددهم بما يحتاجون من مؤنٍ وعتادٍ وأسلحة وكان معسكر البراغيث مركز الرياسة العامة ومقر القائد العام عمر المختار،والنواة الأولى وحجر الأساس لمعسكرات الجبل الأخضر الثلاثة، وُلقّب عمر المختار بنائب الوكيل العام وأقرّ حاكم برقة الإيطالي إتيليو تروتسي في مذكّراته بأنّ تكتيك ملاحقة الثوار وضربهم المستمرّ بالجبل

الأخضر الذي اتبع منذ استلام الجنرال مومبيللي القيادة عام 1926 قد أدّى إلى إنهاك القوة الإيطالية واستنفاذ قواها بقدر ما أنهك قوات الثوار، مما جعله أسلوباً غير مجدٍ كما أقر تروتسي بالأثر المعنويّ السيء الذي خلّفته ضربات الثوار المتلاحقة على القوات الإيطالية فى تلك الفترة، التي لم تستطع ردّ هذه الضربات أو إيقافها وخلال تلك الفترة كانت إيطاليا تركز اهتمامها على مدينة برقة التي لم تستطع احتلالها منذ سنة 1923، وانحصرت جهدها على معسكرات عمر المختار الذي لم يخرج يومًا من معركة إلّا ليدخل في معركة أخرى قد قام بتأسيس معسكر للمجاهدين في الجبل الأخضر، وأصبح يتولّى بنفسه إدارته والإشراف على تدريب المقاتلين وتنظيم هجماتهم ثم اتّخذ لاحقاً منطقةشحات قاعدة عسكرية له ولرجاله وفي عام1927 تبدّلت قيادة الجيش الإيطالي في برقة، وتولّى أمرها القائد العام ميزتي، وسعى إلى ضرب الحصار على حركة الجهاد في الجبل الأخضر،كما استبدل حاكم بنغازي الإيطالي مومبيلي بخلفه الفريق أوّل تيروتس، وزوّد القائد ميزتي بعدد كبير من كبار الضبّاط وأركان الحرب لمساعدته وفي نفس السنة تقدمت القوات الإيطاليّة من طرابلس الغرب بقيادة الفريق أوّل رودولفو جراتسياني، فاحتلت واحة الكفرة والقسم الأكبر من فزان واشتبكت مع القبائل المحليّة في عدّة وقعات كانت الغلبة فيها للجيش الإيطالي وقد ضاعفت الحكومة الإيطاليّة من جهودها غير العسكريّة أيضًا، فبذلت أموال طائلة ووعود

لزعماء القبائل حتى يكفوا عن القتال، فأصابت في ذلك نجاحاً كبيراً كان من نتيجته أن سقطت جغبوب ومرادة وزلة وجالو وأوجلة في أيديهم وقد حاول عمر المختار مراراً إقناعهم بعدم التفاوض مع الإيطاليين والاستمرار في المقاومة لكن بعد بدء رضا السنوسي الدخول هو الآخر في المفاوضات مع الإيطاليين فى أواخر عام 1937، متّجهاً في ذلك إلى عقد السلم معهم، أصدر أوامره إلى عمر المختار من جالو بضرورة وقف العمليات العسكرية،وقبل عمر المختار بنقل هذه الأوامر إلى رجاله، فخفّت وتيرة القتال في أنحاء الجبل الأخضر بانتظار تجلّي الموقف وكان احتلال تلك الواحات الصحراوية التي استسلم زعماؤها قد جعل عمر المختار في عزلة تامّة في الجبل الأخضر ومع هذا ظلّ المختار يشن الغارات على درنة وما حولها حتى أرغم الطليان على الخروج بجيوشهم لمقابلته، فاشتبك معهم في معركة شديدة استمرت يومين كان النصر فيها حليفه، وفرّ الطليان تاركين عددًا من السيّارات والمدافع الجبليّة وصناديق الذخيرة واستمر المختار فى حربه ضد الطليان يغلبوه مرة ويغلبهم مرات إلى أن تمكنوا من اعتقاله ففي شهر أكتوبر سنة 1930 تمكن الطليان من الاشتباك مع المجاهدين في معركة كبيرة عثر الطليان عقب انتهائها على نظّارات المختار، كما عثروا على جواده المعروف مجندلًا في ميدان المعركة؛ فثبت لهم أن المختار ما زال على قيد الحياة، وأصدر جراتسياني منشورًا ضمنه هذا الحادث حاول فيه أن

يقضي على أسطورة المختار الذي لايقهر أبدًا وقال متوعدًا لقد أخذنا اليوم نظارات المختار وغدًا نأتي برأسه وفي 11\9\ 1931 توجّه عمر المختار بصحبة عدد صغير من رفاقه ،لزيارة ضريح الصحابي رويفع بن ثابت بمدينة البيضاء فشاهدتهم وحدة استطلاع إيطاليّة، وإثر اشتباك في أحد الوديان قرب عين اللفو، جرح حصان المختار فسقط إلى الأرض وتعرّف عليه في الحال أحد الجنود المرتزقة الليبيين فيقول المجاهد التواتي عبد الجليل المنفي، الذي كان شاهدًا على اللحظة التي أسر فيها عمر المختار من قبل الجيش الإيطالي كنّا غرب منطقة سلنطة هاجمنا الأعداء الخيّالة وقُتل حصان سيدي عمر ، فقدّم له ابن اخيه المجاهد حمد محمد المختار حصانه وعندما همّ بركوبه قُتل أيضاً وهجم الأعداء عليه ورآه أحد المجندين العرب وهو مجاهد سابق له دوره ذُهل واختلط عليه الأمر وعزّ عليه أن يُقبض على عمر المختار فقال: يا سيدي عمر يا سيدي عمر فعرفه الأعداء وقبضوا عليه وتمّ استدعاء أحد القادة الطليان،وهو متصرف الجبل الأخضر دودياشي الذي سبق أن فاوض عُمر المختار للتثبت من هوية الأسير وبعد أن التُقطت الصور مع الأسير، نُقل عمر المختار إلى مبنى بلدية سوسة، ومن هناك على ظهر طرّاد بحري إلى سجن بنغازي مُكبّلًا بالسلاسل يقول جراتسياني في مذكراته أنّه خلال الرحلة إلى بنغازي، تحدّث بعض السياسيين مع عمر المختار ووجهوا إليه اسئلة، فكان يجيب بكل هدوء وبصوت ثابت وقوي

دون أي تأثر بالموقف الذي هو فيه وقال أيضًا :هذا الرجل اسطورة الزمان الذي نجا آلاف المرات من الموت ومن الأسر واشتهر عند الجنود بالقداسة والاحترام لأنه الرأس المُفكر والقلب النابض للثورة العربيّة الإسلاميّة في برقة وكذلك كان المُنظم للقتال بصبر ومهارة فريدة لا مثيل لها سنين طويلة والآن وقع أسيرًا في ايدينا.

عندما وصل الأسير إلى بنغازي، لم يُسمح لأي مراسل جريدة أو مجلّة بنشر أي أخبار أو مقابلات، وكان على الرصيف مئات من المشاهدين عند نزوله في الميناء ولم يتمكن أي شخص مهما كان مركزه أن يقترب من الموكب المُحاط بالجنود المدججين بالسلاح ونُقل المختار فوق سيّارة السجن تصحبه قوّة مسلّحة بالمدافع الرشّاشة حيث أودع في زنزانة صغيرة خاصة منعزلة عن كافة السجناء السياسيين وتحت حراسة شديدة، وكان يتم تغيير الحرّاس كل فترة ويقول مترجم كتاب برقة الهادئة الأستاذ إبراهيم سالم عامر أنّ زنزانة عمر المختار كانت تحوي سريرًا من خشب وقماش وعلى أرضيّتها قطعة من السجّاد البالي ، ويُضيف أنّ المختار كان يجلس عليها ويُسند ظهره على الجدران ويمد رجليه إلى الأمام حتى يُريحهما وأثناء مكوث عمر المختار في السجن، أراد المأمور ، وهو السكرتير العام لحكومة برقة، أن يُقحم الشارف الغرياني في موقف حرج مع عمر المختار فأبلغه أنّ المختار طلب مقابلته، فذهب الشارف الغرياني إلى السجن لمقابلة المختار، عندما

التقيا خيّم السكوت الرهيب ولم يتكلم المختار فقال الشارف الغرياني مثلًا شعبيًا مخاطبًا به المختار الحاصلة سقيمة والصقر ما يتخبل، وماكاد المختار يسمع المثل المذكور حتى رفع رأسه ونظر إلى الشارف الغرياني وقال له الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه ثم أردف قائلًا :ربِّ هب لي من لدُنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا، أنني لم أكن في حاجة إلى وعظ أو تلقين، أنني أومن بالقضاء والقدر،وأعرف فضائل الصبر والتسليم لإرادة الله، أنني متعبٌ من الجلوس هنا، فقل لي ماذا تريد؟ وهنا أيقن الشارف الغرياني بأنه غرّر به فزاد تأثره وقال للمختار ما وددت أن أراك هكذا ولقد أرغمت نفسي للمجيء بناءً على طلبك فقال المختار والجبل الشامخ أنا لم أطلبك ولن أطلب أحدًا ولا حاجة لي عند أحد، ووقف دون أن ينتظر جوابًا من الشارف الغرياني، وعاد الأخير إلى منزله لم يصدق وزير المستعمرات الخبر في البداية وجراتسياني الذي كان متوجهًا إلى باريس نزل من قطاره ليعود مسرعًا إلى بنغازي ثم انقلبت دهشتهم إلى فرح هستيري ،وإصرار على محاكمة فوريّة وإعدام بصورة صاخبة ومُثيرة كما جاء في برقيّة دى بونو وزير المستعمرات إلى بادوليو حاكم ليبيا لكن ما فاجأ الطليان كان هدوء الأسير وصراحته المُذهلة في الرد على أسئلة المُحققين، بثباتٍ تام ودون مراوغة، إذ قال لهم نعم قاتلت ضد الحكومة الإيطاليّة، لم أستسلم قط لم تخطر ببالي قط فكرة الهرب عبر الحدود منذ عشر سنوات تقريبًا اشتركت في معارك

كثيرة لا أستطيع تحديدها لا فائدة من سؤالي عن وقائع منفردة وما وقع ضد إيطاليا والطليان،منذ عشر سنوات وحتى الآن كان بإرادتي وإذني كانت الغارات تُنفّذ بأمري، وبعضها قمت به أنا بنفسي الحرب هى الحرب أعترف بأنه قُبض عليّ والسلاح بيدي، أمام الزاوية البيضاء، في غوط اللفو، هل تتصورون أن أبقى واقفًا دون إطلاق النار أثناء القتال؟ ولا أشعر بالندم عمّا قمت به .

وصل جراتسياني إلى بنغازي وأعلن عن انعقاد المحكمة الخاصة وفي صبيحة ذلك اليوم وقبل المحاكمة رغب جراتسياني في الحديث مع عمر المختار يذكر جراتسياني في مذكراته عندما حضر أمام مكتبي تهيّأ لي أن أرى فيه شخصية آلاف المُرابطين الذين التقيت بهم أثناء قيامي بالحروب الصحراويّة يداه مُكبلتان بالسلاسل رغم الكسور والجروح التي أُصيب بها أثناء المعركة، وكان وجهه مضغوطًا لأنه كان مُغطيًا رأسه بالَجَردْ ويجرّ نفسه بصعوبة نظرًا لتعبه أثناء السفر بالبحر، وبالإجمال يُخيل لي أنّ الذي يقف أمامي رجلٌ ليس كالرجال: له منظره وهيبته رغم أنّه يشعر بمرارة الأسر، ها هو واقفٌ أمام مكتبي نسأله ويجيب بصوتٍ هادئ وواضح

جراتسياني: لماذا حاربت بشدّة متواصلة الحكومة الفاشيّة؟

أجاب المختار: من أجل ديني ووطني.

جراتسياني: ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه؟

فأجاب المختار: لا شيء إلّا طردكم لأنكم مغتصبون،أما الحرب فهي فرضٌ علينا وما النصر إلا من عند الله.

جراتسياني: لما لك من نفوذ وجاه، في كم يوم يمكنك أن تأمر الثوار أن يخضعوا لحكمنا ويسلموا أسلحتهم؟

فأجاب المختار: لا يُمكنني أن أعمل أي شيء وبدون جدوى نحن الثوار سبق أن أقسمنا أن نموت كلّنا الواحد بعد الأخر، ولا نسلّم أو نُلقي السلاح ويستطرد جراتسياني حديثه :عندما وقف ليتهيأ للانصراف، كان جبينه وضاء كأنّ هالة من نور تُحيط به، فارتعش قلبي من جلال الموقف، أنا الذي خاض المعارك والحروب العالميّة، والصحراويّة ،ولُقبت بأسد الصحراء، ورُغم هذا كانت شفتاي ترتعشان ولم أستطع أن أنبس بحرفٍ واحد،فانتهت المُقابلة وأمرت بإرجاعه إلى السجن لتقديمه للمُحاكمة في المساء، وعند وقوفه حاول أن يمد يده لمُصافحتي ولكنّه لم يتمكن لأن يديه كانت مُكبلة بالحديد لقد خرج من مكتبي كما دخل عليّ وأنا أنظر إليه بكل إعجاب وتقديروجرت محاكمة عمر المختار وكانت صورية شكلًا وموضوعًا ،إذ كان الطليان قد أعدوا المشنقة وانتهوا من ترتيبات الإعدام قبل بدء المحاكمة وصدور الحكم على المختار، ويبدو ذلك جلياً من خلال حديث جراتسياني مع المختار خلال

مقابلتهما، حين قال له :إني لأرجو أن تظل شجاعًا مهما حدث لك أو نزل بك، فأجابه المختار :إن شاء الله وجيء بعمر المختار وأحضر أحد المترجمين الرسميين فلمّا افتتحت الجلسة وبدأ استجواب المختار، بلغ التأثر بالمترجم حدًا جعله لايستطيع إخفاء تأثره وظهر عليه الارتباك، فأمر رئيس المحكمة باستبعاده وإحضار آخر فوقع الاختيار على أحد اليهود من بين الحاضرين في الجلسة، وكان عمر المختار جريئًا صريحًا، يصحح للمحكمة بعض الوقائع، خصوصًا حادث الطيارين الإيطاليين أوبر وبياتي، الذين أسرهما المجاهدون قبل ذلك وبعد استجواب المختار ومناقشته، وقف المدعي العام بيدندو، فطلب الحكم على عمر المختار بالإعدام وكان لحضور المختار في المحكمة أمام خصومة أثرٌ في نفوسهم، فرؤية شيخ طاعن في السن مُكبّل بالسلاسل، صريحٌ وشجاع عندما يتكلم، كان لها وقعٌ على الكثير من الحاضرين، ولعلّ أبرز ما يُظهر ذلك هو أنه عندما جاء دور المحامي المعهود إليه بالدفاع عن المختار، وكان ضابطًا إيطاليًا شابًا يُدعى روبرتو لونتانو، حاول أن يُبقي على حياة المختار، فطالب بالحكم عليه بالسجن المؤبّد نظرًا لشيخوخته وكِبر سنّه، متحججًا بأنّ هذا عقاب أشد قساوةً من الإعدام غير أنّ المدعي العام، تدخل وقطع الحديث على المحامي وطلب من رئيس المحكمة أن يمنعه من إتمام مرافعته مستندًا في طلبه هذا إلى أنّ الدفاع خرج عن الموضوع، فقام النائب العام ليحتج، فقاطعه القاضي

برفع الجلسة للمداولة، وبعد مضي فترة قصيرة من الانتظار دخل القاضي والمستشاران والمدعي العام بينما المحامي لم يحضر لتلاوة الحكم القاضي بإعدام عمر المختار شنقًا حتى الموت، وعندما تُرجم الحكم إلى عمر المختار اكتفى بالقول إنّ الحكم إلّا لله لا لحكمكم المُزيّف إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

في صباح اليوم التالي للمحاكمة، أي الأربعاء في 16 سبتمبر ، اتُخذت جميع التدابير اللازمة بمركز سلوق لتنفيذ الحكم وأحضر 20 ألف من الأهالي وجميع المُعتقلين السياسيين خصيصًا من أماكن مختلفة لمشاهدة تنفيذ الحكم في قائدهم وأحضر المُختار مُكبّل الأيادي وفي تمام الساعة التاسعة صباحًا سُلّم إلى الجلّاد،وبمجرد وصوله إلى موقع المشنقة أخذت الطائرات تحلق في الفضاء فوق ساحة الإعدام على انخفاض،وبصوت مدوّي لمنع الأهالي من الاستماع إلى عمر المختار إذا تحدث إليهم أو قال كلامًا يسمعونه، لكنه لم ينبس بكلمة، وسار إلى منصة الإعدام وهو ينطق الشهادتين، وقيل عن بعض الناس الذين كانوا على مقربة منه انه كان يؤذن في صوت خافت عندما صعد إلى الحبل، والبعض قال أنه تمتم بالآية القرآنية :(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) ، وبعد دقائق كان قد عُلّق على المشنقة وفارق الحياة .

كان عمر المختار رجلاً متديناً للغاية وصفه الجنرال جراتسياني بأنه كان حادّ الذكاء واسع الثقافة قاسي الطباع، إلا إنّه شديد النزاهة والتواضع، فكان فقيراً لا يملك شيئاً وقال عنه أيضاً أنه متديّن متعصّب، إلا إنه رحيمٌ عندما تكون المقدرة في يده، وشديد الولاء والإخلاص لوطنه وقال :ذنبه الوحيد أنه كان يكرهنا كثيراً، وفي بعض الأحيان يسلّط علينا لسانه ،ويعاملنا بغلظةٍ مثل الجبليّين، كان دائماً معادياً لنا ولسياساتنا في كافة الأحوال، ولا يلين أبداً، ولا يهادن، إلا إذا كان الموضوع في صالح وطنه ليبيا، ولم يخن قيادته، فهو دائماً موضع الاحترام رغم التصرّفات التي تبدر منه في غير صالحنا غير أن تضحية المختار بنفسه، وتسخيرها كاملة لأجل تراب وطنه منذ أن شب الوعي فى وجدانه، يختلف كثيراً عن التضحيات الكثيرة الأخرى التى قدمها كل الأشراف الآخرين، حتى وإن كان هؤلاء جميعاً يشتركون معه فى تقديم أرواحهم مثله لأجل الوطن أو الإيمان بعقيدتهم الدينية ؛ ويكمن هذا الاختلاف فى عدة أمور وسمات فالسمة الأولى التى تميز بها عمر المختار عن غيره من المناضلين، هى إصراره المتواصل على الجهاد ضد العدو الإيطالي المغتصب للأراضي الليبية دون كلل أو وهن فى العزيمة، فى جميع أطوار حياته حتى بعد أن أدركته الشيخوخة وما يصاحبها من أمراض كثيرة؛ فلم ينكس فى يوم سلاحه أو يتخاذل ولو لبرهة، فقد ظل حتى اللحظات الأخيرة من حياته شاهراً لسلاحه فى وجه

العدو ورافع لواء النضال والجهاد ضده، كما ظل حتى رمقه الأخير شعلة متوهجة تتقد حماساً فى مقاومة العدو المغتصب والسمة الثانية التى امتاز بها عمر المختار، هى عدم مساومته فى قضية تحرير بلاده من ربقة الإستعمار، فرغم المغريات العديدة الفائقة التى كانت تنهال عليه من قبل السلطات الإيطالية والتى قد يسيل لها لعاب أي شخص آخر لو حل محله، إلا أن المختار كان يرمى بكل هذه المغريات فى وجه عارضيها رافضاً حتى مجرد مناقشتها والغور فى حيثياتها حتى أنه قد نزل صده لإغراءات وعروض الإيطاليين الهائلة منزل الصاعقة عليهم، وأغرقهم فى يم من الذهول والدهشة، وسمر عقولهم عن فهم رفضه هذا فلم يكن لهم أن يفهموا أحجية هذا الشيخ المسن الذى أضناه الفقر وقست عليه الكهولة بوهنها ، وانهكته المواجهات الحربية المستمرة، ومع ذلك يرفض عروضهم المغالى فى كرمها؛ فهذا بالنسبة لهم أمر عجاب لا تصدقه عقولهم ، ويرفضه منطق فهمهم المادي للحياة، لكنه بالنسبة لعمر المختار هو واجب تمليه عليه مبادئه الوطنية وعقيدته الدينية ، فهو نداء ديني ووطني لا يجد فى نفسه سعة له إلا بتلبيته وأداء فريضته أما السمة الثالثة المميزة لعمر المختار فهى شخصيته القيادية الفذة، فهو يحوز فى نفسه صفة الكريزما الفائقة النظير والتى جعلته قادراً على اشباع نفوس أتباعه بروح الفداء والنضال والجهاد ضد العدو المغتصب لوطنهم، ورفعت مكانته بين أخوانه المجاهدين، فأصبحت

كلمته مسموعة فى قلوبهم قبل آذانـهم، وصارت إيماءاته أوامر مجابة، وأمست إشاراته واجبات مطاعة.

الفارس الرابع

السلطان محمد الفاتح

هو سابع سلاطين الإمبراطورية العثمانية وعرف بألقاب أخرى مثل أبى الخيرات، وقد حكم الإمبراطورية العثمانية على مدى ثلاثين عاماً شهدت توسعاً كبيراً فى الإمبراطورية وقد تميز محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل .

ولد فى٣٠ مارس ١٤٣٢ وتولى السلطنة وعمره اثنتين وعشرين سنة،وأراد أن يتمم ما بدأه أبوه وأجداده فى الفتوحات ، ولقد برز بعد توليه السلطة فى الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة،واهتم كثيراً بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند،وزاد من مرتباتهم وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوفرة فى ذلك العصر وعمل على تطوير إدارة الأقاليم، وأقر بعض الولاة السابقين فى أقاليمهم، وعزل من ظهر منه تقصير أو إهمال، وطور البلاط السلطانى، وبعد أن قطع أشواطاً مثمرة فى الإصلاح الداخلى تطلع إلى مناطق أوروبية لفتحها ونشر الإسلام فيها وتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجى المهم

للتحركات ضد العالم الإسلامى وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وقد فتحها يوم الثلاثاء ٢٩ مايو عام ١٤٥٣وكان محمد الفاتح محباً للعلم والعلماء، لذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد فى جميع أرجاء دولته وأدخل بعض الإصلاحات فى التعليم وأشرف على إصلاح المناهج وتطويرها،وحرص على نشر المدارس والمعاهد فى المدن والقرى كافة، وحدد العلوم والمواد التى تدرس فى كل مرحلة،ووضع لها نظام امتحانات دقيق للانتقال للمرحلة التى تليها،وكان ربما يحضر امتحانات الطلبة ويزور المدارس ولا يبخل بالعطاء للنابغين من الأساتذة والطلبة، وجعل التعليم بالمجان، وكان مهتماً بالأدب عامة والشعر خاصة، وكان يصاحب الشعراء ويصطفيهم، كما اهتم بالترجمة واللغة العربية، وقد تميز عصره بجانب ذلك بقوة الجيش وتفوقه العددى وكان شديد الحرص على العدل فى أجزاء دولته واعتنى بوجه خاص برجال القضاء وجعل الدولة تتكفل بحوائجهم المادية حتى تسد طرق الإغراء والرشوة.

قاد السلطان حملة إلى إيطاليا، وعرض أهل البندقية على طبيبه الخاص يعقوب باشا أن يقوم باغتياله، فيعقوب لم يكن مسلماً عند الولادة فقد ولد فى إيطاليا، وقد ادعى الهداية، وأسلم بدأ يعقوب يدس السم تدريجيا للسلطان، ولكن عندما علم بأمر الحملة زاد جرعة السم وتوفى السلطان فى ٣ مايو من عام ١٤٨١م.

تابع السلطان محمد فتوحاته في آسيا، فوحّد ممالك الأناضول، وتوغّل في أوروبا حتى بلجراد ومن أبرز أعماله الإدارية دمجه للإدارات البيزنطية القديمة في جسم الدولة العثمانية الموسعة آنذاك ويُلاحظ أن محمد الثاني لم يكن أول حاكم تركي للقسطنطينية،فقد كان أحد الأباطرة الروم السابقين، والمدعو ليون الرابع باليونانية من أصول خزرية،وهؤلاء قوم من الترك شبه رحّل كانوا يقطنون سهول شمال القوقاز كان محمد الثاني عالي الثقافة ومحبًا للعلم والعلماء،وقد تكلّم عدداً من اللغات إلى جانب التركية ،وهي :الفرنسية ، اللاتينية ، اليونانية ، الصربية ، الفارسية ،العربية ، والعبرية.

<u>إخبار النبي ﷺ عنه :</u> روى عن النبي ﷺ أنه تحدث عن أمير من أفضل أمراء العالم، وأنه هو من سيفتح القسطنطينية ففي مسند أحمد في الحديث رقم 18189عن عَبْدُ اللّهِ بْنُ بِشْرٍ الْخَثْعَمِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنّهُ سَمِعَ النّبِيّ ﷺ يَقُولُ: لَتُفْتَحَنّ الْقُسْطَنْطِينِيّةُ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ وعندما بلغ محمد الثاني ربيعه الحادي عشر أرسله والده السلطان إلى أماسيا ليكون حاكماً عليها وليكتسب شيئًا من الخبرة اللازمة لحكم الدولة، كما كانت عادة الحكّام العثمانيين قبل ذلك العهد فمارس محمد الأعمال السلطانية في حياة أبيه،ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية في الظروف المختلفة،كما كان على اطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية، بل ويعلم بما

سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة وخلال الفترة التي قضاها حاكماً على أماسيا، كان السلطان مراد الثاني قد أرسل إليه عددًا من المعلمين لكنه لم يمتثل لأمرهم،ولم يقرأ شيئاً،حتى أنه لم يختم القرآن الكريم، الأمر الذي كان يُعد ذا أهمية كبرى، فطلب السلطان ، رجلاً له مهابةً وحدّة، فذكروا له أحمد بن إسماعيل الكوراني، فجعله معلمًا لولده وأعطاه قضيبًا يضربه به إذا خالف أمره، فذهب إليه، ودخل عليه والقضيب بيده، فقال: أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري،فضحك السلطان محمد الثاني من ذلك الكلام، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضربًا شديدًا، حتى خاف منه السلطان محمد، وختم القرآن في مدة يسيرة.

هذه التربية الإسلامية كان لها أكبر الأثر في تكوين شخصية محمد الفاتح،فجعلته مسلماً مؤمناً ملتزماً بحدود الشريعة،مقيداً بالأوامر والنواهي معظماً لها ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها، فتأثر بالعلماء الربانيين،وبشكل خاص معلمه المولى الكوراني وانتهج منهجهم وبرز دور الشيخ آق شمس الدين في تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه منذ صغره أمرين هما مضاعفة حركة الجهاد العثمانية، والإيحاء دوماً لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي، لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث النبي ﷺ .

توفي أكبر أولاد السلطان مراد واسمه علاء الدين، فحزن عليه والده حزنًا شديدًا وسئم الحياة، فتنازل عن الملك لابنه محمد البالغ من العمر أربع عشرة سنة،وسافر إلى ولاية أيدين للإقامة بعيدًا عن هموم الدنيا وغمومها لكنه لم يمكث في خلوته بضعة أشهر حتى أتاه خبر غدر المجر وإغارتهم على بلاد البلغار غير مراعين شروط الهدنة بعد تغرير الكاردينال سيزاريني، مندوب البابا ، وإفهامه لملك المجر أن عدم رعاية الذمة والعهود مع المسلمين لا تُعد حنثًا ولا نقضًا وكان السلطان محمد الثاني قد كتب إلى والده يطلب منه العودة ليتربع على عرش السلطنة تحسبًا لوقوع معركة مع المجر، إلا أن مراد رفض هذا الطلب فرد محمد الثاني الفاتح : إن كنت أنت السلطان فتعال وقف على قيادة جيشك ورياسة دولتك وإن كنت أنا السلطان فإني آمرك بقيادة الجيش وبناءاً على هذه الرسالة،عاد السلطان مراد الثاني وقاد الجيش العثماني في معركة فارنا،التي كان فيها النصر الحاسم للمسلمين.

انتقل السلطان محمد الثاني إلى مانيسا غرب الأناضول بعد ثورة الإنكشارية عليه وبعد أن جمعهم والده وانتقل لخوض حروبه في أوروبا ليس هناك معلومات كثيرة تفيد بالذي قام به السلطان محمد في مانيسا، ولكنه تزوج بوالدة ولي العهد، كما كان يُطلق على زوجات السلاطين،أمينة جلبهار ذات الجذور اليونانية النبيلة، من قرية دوفيرا في طرابزون،التي توفيت بعد أن أنجبت السلطان بايزيد الثاني وكان

السلطان مراد الثاني قد عاد إلى عزلته مرة أخرى بعد أن انتصر على المجر واستخلص مدينة فارنا منهم، لكنه لم يلبث فيها هذه المرة أيضاً،لأن عساكرالإنكشارية ازدروا ملكهم الفتى محمد الثاني وعصوه ونهبوا مدينة أدرنة عاصمة الدولة،فرجع إليهم السلطان مراد الثاني وأخمد فتنتهم وخوفًا من رجوعهم إلى إقلاق راحة الدولة، أراد أن يشغلهم بالحرب، فأغار على بلاد اليونان والصرب طيلة سنواته الباقية ،وفتح عدداً من المدن والإمارات وضمها إلى الدولة العثمانية وتزوج السلطان محمد في هذه الفترة أيضاً بزوجته الثانية ستّي مكرم خاتون الأميرة من سلالة ذي القدر التركمانية .

قام محمد الفاتح خلال المدة التي قضاها في مانيسا، بضرب النقود السلجوقية باسمه،وفي أغسطس أو سبتمبر من عام 1449، توفيت والدته،وبعد هذا بسنة، أبرم والده صلحاً مع اسكندر بك، أحد أولاد جورج كستريو أمير ألبانيا الشمالية الذين كان السلطان مراد الثاني قد أخذهم رهائن وضمّ بلاد أبيهم إليه بعد موته وكان اسكندر المذكور قد أسلم، أو بالأحرى تظاهر بالإسلام لنوال ما يكنه صدره وأظهر الإخلاص للسلطان حتى قرّبه إليه، ثم انقلب عليه أثناء انشغاله بمحاربة الصرب والمجر، وبعد عدد من المعارك لم يستطع الجيش العثماني المنهك استرجاع أكثر من مدينتين ألبانيتين، فرأى السلطان مصالحة البك ريثما يعود ليستجمع جيشه قوته ثم يعود لفتح مدينة آق حصار .

وصلت أنباء وفاة السلطان مراد إلى ابنه محمد الثاني،فركب فوراً إلى أدرنة حيث توّج سلطانا للمرة الثانية ،وأقام جنازة لوالده الراحل وأمر بنقل الجثمان إلى مدينة بورصة لدفنه بها،وأمر بإرجاع الأميرة مارا الصربية إلى والدها، أمير الصرب جورج برنكوفيتش، وعندما تولى محمد الثاني لم يكن فى آسيا الصغرى خارجاً عن سلطانه إلا جزء من بلاد القرمان ومدينة سينوب ومملكة طرابزون الروميّة وصارت مملكة الروم الشرقية قاصرة على مدينة القسطنطينية وضواحيها وكان إقليم موره مجزءاً بين البنادقة وعدّة إمارات صغيرة يحكمها بعض أعيان الروم أو الإفرنج الذين تخلفوا عن إخوانهم بعد انتهاء الحروب الصليبية ، وبلاد الأرنؤود وإيبيروس في حمى إسكندر بك سالف الذكر، وبلاد البشناق المستقلة،والصرب التابعة للدولة العثمانية تبعية سيادية، وما بقي من شبه جزيرة البلقان كان داخلاً تحت سلطة الدولة .

أخذ السلطان محمد الثاني، بعد وفاة والده، يستعد لاتمام فتح ما بقي من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية حتى تكون جميع أملاكه متصلة لا يتخللها عدو مهاجم أو صديق منافق، فبذل بداية الأمر جهودًا عظيمة في تقوية الجيش العثماني فوصل تعداده قرابة ربع مليون جندي، كما عني عناية خاصة بتدريبه على فنون القتال المختلفة بمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للغزو الكبير المنتظر، كما أعتنى بإعدادهم إعدادًا معنويًا قويًا وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء النبي ﷺ على الجيش

الذي يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائمهم أراد السلطان، قبل أن يتعرض لفتح القسطنطينية أن يُحصّن مضيق البوسفور حتى لا يأتي لها مدد من مملكة طرابزون، وذلك بأن يُقيم قلعة على شاطئ المضيق في أضيق نقطة من الجانب الأوروبي منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي ولمّا بلغ إمبراطور الروم هذا الخبر أرسل إلى السلطان سفيرًا يعرض عليه دفع الجزية التي يُقررها،فرفض الفاتح طلبه وأصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة روملي حصار: وأصبحت القلعتان متقابلتين،يفصل بينهما 660 متراً، تتحكمان في عبور السفن من شرقي البوسفور إلى غربه وتستطيع نيران مدافعهما منع أية سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها كما فرض رسوم مرورعلى السفن التى تمر في مجال المدافع العثمانية المنصوبة في القلعة واعتنى عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع، التي أخذت اهتماماً خاصاً منه ويُضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله من عناية خاصة بالأسطول العثماني؛ حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود قوة

بحرية تقوم بهذه المهمة وقد ذُكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة في هذه الأثناء ، استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره،ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي عزم السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد، وقد اضطر الإمبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك قام البابا بناءاً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين،مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس: إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية وسعى السلطان، بعد الاستعداد لإيجاد مبرر للحرب، ولم يلبث أن وجد هذا السبب بتعدي الجنود العثمانيين على بعض قرى الروم ودفاع هؤلاء

عن أنفسهم، حيث قُتل البعض من الفريقين فعمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة إلى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية، في مدة شهرين وتمت حمايتها حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس 6 أبريل،1453م، فجمع الجند وكانوا ربع مليون ، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة،وذكّرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء،وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للإسلام والمسلمين، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء وبهذا ضرب السلطان الحصار على المدينة بجنوده من ناحية البر، وبأسطوله من ناحية البحر، وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية مدفعية وأثناء الحصار اكتُشف قبر أبي أيوب الأنصاري الذي استشهد حين حاصر القسطنطينية سنة 52هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان الأموي .

وفي هذا الوقت قام البيزنطيين بسد مداخل ميناء القسطنطينية بسلاسل حديدية غليظة حالت بين السفن العثمانية والوصول إلى القرن الذهبي، بل دمرت كل سفينة حاولت الدنو والاقتراب إلا أن الأسطول العثماني نجح على الرغم من ذلك في الاستيلاء على جزر الأمراء

في بحر مرمرة فاستنجد الإمبراطور قسطنطين آخر ملوك الروم ، بأوروبا فلبّى طلبه أهالي جنوة وأرسلوا له إمدادات مكونة من خمس سفن كان يقودها القائد الجنوي جوستنياني يُرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوروبية متعددة، فأتى هذا القائد بمراكبه وأراد الدخول إلى ميناء القسطنطينية، فاعترضته السفن العثمانية ونشبت بينهما معركة هائلة انتهت بفوز جوستنياني ودخوله الميناء بعد أن رفع المحاصرون السلاسل الحديدية ثم أعادوها بعد مرور السفن الأوروبية كما حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلاسل الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية، فارتفعت بهذا الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة بعد هذا الأمر،أخذ السلطان يُفكر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لإتمام الحصار برّاً وبحراً، فخطر بباله فكر غريب، وهو أن ينقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعها، وتمّ هذا الأمر المستغرب بأن مهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتي بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم،ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من البيزنطيين .

استيقظ أهل المدينة صباح يوم 22 أبريل وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين، ولقد عبّر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال :ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق،محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الأسكندر الأكبر وأيقن المحاصرون عند هذا أن لا مناص من نصر العثمانيين عليهم، لكن لم تخمد عزائمهم بل ازدادوا إقداماً وصمموا على الدفاع عن مدينتهم حتى الموت وفي 24 مايو سنة 1453م ،أرسل السلطان محمد إلى الإمبراطور قسطنطين رسالة دعاه فيها إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاؤون بأمان، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى وخيرهم بين البقاء في المدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الامبراطور إلى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الامبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس

في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يُدفن تحت أسوارها، فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر وبدأ الهجوم العام على المدينة، فهجم مائة وخمسون ألف جندي وتسلقوا الأسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج وأعملوا السيف فيمن عارضهم واحتلوا المدينة شيئًا فشيئًا إلى أن سقطت بأيديهم ، بعد 53 يوماً من الحصار أما الإمبراطور قسطنطين فقاتل حتى مات ولم يهرب أو يتخاذل ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب، فأصدر أمره بمنع كل اعتداء، فساد الأمن حالاً ثم توجه إلى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف المسيحيون داخلها خوفاً عظيماً وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فأطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأسلموا،وأعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينين وفرض الجزية وبتمام فتح المدينة، نقل السلطان محمد مركز العاصمة إليها،وسُميت إسلامبول، أي تخت الإسلام أو مدينة الإسلام وأعدم الصدر الأعظم جندرلي باشا، لتلقيه رشوة لفضح تحركات الجيش العثماني، وسُملت عيناه، ثم أعدم وبعد إتمامه لترتيباته وبناء ما

هُدم من أسوار القسطنطينية وتحصينها، أمر السلطان ببناء مسجد بالقرب من قبر أبي أيوب الأنصاري،ثم سافر بجنوده للفتح فقصد بلاد موره وفي السنة التالية فتح بلاد الصرب ومر بجيوشه فاتحاً البلاد حتى وصل بلجراد على نهر الدانوب وحاصرها من جهة البر والنهر وكان هونياد المجري دخل المدينة قبل إتمام الحصار عليها ودافع عنها دفاع الأبطال حتى يئس السلطان من فتحها ورفع عنها الحصار سنة 1455لكن قتل هونياد بعد أصابته بجراح بليغة توفي بسببها وعلم السلطان بموته فأرسل الصدر الأعظم لإتمام فتح بلاد الصرب فأتمّ فتحها وبعد عودة السلطان من بلاد اليونان أبرم صلحًا مع إسكندر بك وترك له إقليما ألبانيا وإيبيروس، ثم حوّل أنظاره إلى آسيا الصغرى ليفتح ما بقي منها، فسار بجيشه دون أن يُعلم أحدًا بوجهته في أوائل سنة 1461م،فهاجم أولاً ميناء بلدة أماستريس، وكانت مركز تجارة أهالي جنوة النازلين بهذه الأصقاع لكون سكانها تجّارًا يُحافظون على أموالهم ولا يهمهم دين أو جنسية متبوعهم ما دام غير متعرّض لأموالهم ولا أرواحهم، فتحوا الأبواب ودخل العثمانيون بغير حرب ثم أرسل إلى أمير مدينة سينوب يطلب تسليم بلده والخضوع له ولتعزيز هذا الطلب أرسل أحد قوّاده ومعه عدد عظيم من المراكب لحصار الميناء، فسلمها الأمير وأقطعه السلطان أراض واسعة بأقليم بيثينيا مكافأة له على خضوعه ثم قصد بنفسه مدينة طرابزون ودخلها دون مقاومة شديدة

وقبض على الملك وأولاده وزوجته وأرسلهم إلى القسطنطينية وما أن عاد السلطان إلى القسطنطينية حتى جهز جيشًا لمحاربة أمير الفلاخ فلمّا قرب منها،أرسل إليه هذا الأمير وفدا يعرض على السلطان دفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوكا بشرط أن يُصادق على جميع الشروط الواردة بالمعاهدة التي أبرمت في سنة 1393بين أمير الفلاخ آنذاك والسلطان بايزيد الأول، فقبل السلطان محمد الثاني هذا الاقتراح وعاد بجيوشه ولم يقصد أمير الفلاخ بهذه المعاهدة إلا التمكن من الاتحاد مع ملك المجر متياس كورفينوس ومحاربة العثمانيين فلمّا علم السلطان باتحادهما أرسل إليه مندوبين يسألانه عن الحقيقة، فقبض عليهما وقتلهما بوضعهما على عمود محدد من الخشب،يُعرف بالخازوق وأغار بعدها على بلاد بلغاريا التابعة للدولة العثمانية وعاث فيها فساداً، ورجع بخمسة وعشرين ألف أسير، فأرسل إليه السلطان رسلاً يدعونه إلى الطاعة وإخلاء سبيل الأسرى، فلمّا مثل الرسل أمامه أمرهم برفع عمائمهم لتعظيمه،وعند إبائهم طلبه لمخالفته لعاداتهم، أمر بأن تُسمّر عمائمهم على رؤسهم بمسامير من حديد فلمّا وصلت هذه الأخبار إلى السلطان محمد استشاط غضباً وسار على الفور بحوالي 60,000 جندي نظامي و30,000 غير نظامي ، فوصل بسرعة إلى عاصمة الأمير، بعد أن هزمه وفرّق جيوشه، لكنه لم يتمكن من القبض عليه لهروبه فعزله ونصب مكانه أخاه راؤول لثقته فيه حيث تربّى في

حضانة السلطان منذ نعومة أظفاره، وبذا ضُمّت بلاد الفلاخ إلى الدولة العثمانية ويُقال أنه عند وصول السلطان محمد إلى ضواحي بوخارست، وجد حول المدينة غابة من الخوازيق التي عُلّقت عليها جثث الأسرى الذين أتى بهم أمير الفلاخ من بلاد بلغاريا،وقتلهم عن آخرهم بما فيهم الأطفال والنساء،وكذلك الجنود العثمانيين الذين كان قد قبض عليهم إثر مناوشة ليلية، وكان عددهم جميعا عشرين ألفاً

في سنة 1462،حارب البوسنة لامتناع أميرها عن دفع الخراج ، وأسره بعد معركة هو وولده وأمر بقتلهما، فدانت له جميع بلاد البشناق وأرسل فرمانا إلى الفرنسيسكان من سكان تلك البلاد يُطمئنهم بعدم تعرّض أي منهم للاضطهاد بسبب معتقداتهم الدينية، وأراد ملك المجر استخلاص البوسنة من العثمانيين، فهُزم بعد أن قُتل معظم جيشه، وكانت عاقبة تدخله أن جُعلت البوسنة ولاية كباقي ولايات الدولة، وسُلب ما كان مُنح لها من الامتيازات ، ودخل في جيش الإنكشارية ثلاثون ألفاً من شبانها وأسلم أغلب أشراف أهلها ثم استولى على مدينة آرجوس وغيرها وفتح جزيرة نجر بونت،وبعد أن ساد الأمن أنحاء أوروبا، حوّل السلطان أنظاره إلى بلاد القرمان بآسيا الصغرى ووجد سبيلاً سهلاً للتدخل، وهو أن أميرها المدعو إبراهيم أوصى بعد موته بالحكم إلى أحد أولاده واسمه الأمير إسحق، ولأنه كان لديه إخوة لأب أكبر منه سناً، يرغب كل منهم بالحكم ، تدخل السلطان محمد الثاني

وحارب إسحق وهزمه وولى محله أكبر إخوته وعاد إلى أوروبا ولم يعد للعثمانيين من عدو جهة الشرق حتى بروز الشاه إسماعيل الصفوي في وقت لاحق وكانت الحرب متقطعة بين العثمانيين والبنادقة الذين استعانوا ببابا روما وأمير نابولي،وكان النصر فيها دائماً للعثمانيين، ولم يتمكن البنادقة من استرجاع شيء مما أخذ منهم وفى سنة 1475أراد السلطان فتح مولدوفا، فأرسل إليها جيشاً وبعد قتال عنيف عاد دون فتح شيء من هذا الإقليم ويذكر المؤرخون أن أسطفان الرابع قال أن هذه الهزيمة التي لحقت بالعثمانيين هي أعظم هزيمة حققها الصليب على الإسلام وقالت الأميرة مارا التي كانت زوجةً للسلطان مراد الثاني، والد الفاتح، سابقاً، لمبعوث بندقي أن هذه الهزيمة هي أفظع الهزائم التي تعرّض لها العثمانيون في التاريخ وبذلك اشتهر أسطفان الرابع أمير البغدان بمقاومة العثمانيين، فخلع عليه البابا سيكستوس الرابع لقب بطل المسيح ولما بلغ خبر هذه الهزيمة آذان السلطان عزم على فتح بلاد القرم حتى يستعين بفرسانها المشهورين في القتال وكان لجمهورية جنوة مستعمرة في شبه جزيرة القرم، هي مدينة كافا، فأرسل السلطان إليها أسطولا بحريّا، ففتحها بعد حصار ستة أيام، وبعدها سقطت جميع الأماكن التابعة لجمهورية جنوة وبذلك صارت جميع شواطئ القرم تابعة للدولة العثمانية ولم يُقاومها التتار النازلون بها،ولذلك اكتفى السلطان بفرض الجزية عليها وبعد ذلك فتح الأسطول

العثماني ميناء آق كرمان ومنها أقلعت السفن الحربية إلى مصاب نهر الدانوب لإعادة الكرّة على بلاد مولدوفا، بينما كان السلطان يجتاز نهر الدانوب من جهة البر بجيش عظيم، فتقهقر أمامه جيش مولدوفا واشتبك مع قوات الإنكشارية التي هزمته شر هزيمة، في معركة أطلق عليها اسم معركة الوادي الأبيض فانسحب أسطفان الرابع إلى أقصى شمال غربي بلاده ولانتشار المجاعة ثم الطاعون بين أفراد الجيش، اضطر السلطان لسحب قواته ويعود إلى القسطنطينية دون فتح البلاد و أغار السلطان وُجهت جيوش إلى بلاد المجر لفتح إقليم ترانسلفانيا، فقهرت ، وقُتل في هذه الموقعة كثير من العثمانيين وفُتحت جزر اليونان الواقعة بين بلاد اليونان وإيطاليا المهم أن السلطان محمد فتح كثيراً من البلدان وأخضعها لحكم الاسلام ومنها من هم تحت حمى العقيدة الاسلامية حتى الآن ورغم اهتمامه بالفتوحات الا أنه اهتم أيضاً بالداخل العثمانى فكان محباً للعلم والعلماء،واهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته،وفاق أجداده في هذا وبذل جهوداً كبيرة في نشر العلم وإنشاء دور التعليم،وأصلح التعليم وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها وحرص على نشر المدارس والمعاهد في كافة المدن والقرى وأوقف عليها الأوقاف العظيمة وقام بتنظيمها وترتيبها على درجات ومراحل، ووضع لها المناهج، وحدد العلوم والمواد التي تُدرّس في كل مرحلة، وجعل التعليم في كافة مدارس الدولة بالمجان، وكانت المواد التي تدرس في

تلك المدارس التفسير والحديث والفقه والأدب والبلاغة وعلوم اللغة والهندسة وأنشأ بجانب مسجده بالقسطنطينية ثمان مدارس فيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته ، وألحقت بهذه المدارس مساكن الطلبة ينامون فيها ويأكلون طعامهم ووضعت لهم منحة مالية شهرية، وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة وكان يُشترط في الرجل الذي يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى متبحراً في أسماء الكتب والمؤلفين، وكانت مناهج المدارس تتضمن نظام التخصص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسم خاص وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضاً وقرّب العلماء ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال وكان شاعراً مهتماً بالأدب عامة والشعر خاصة ، ويُعدّ أوّل شاعر سلطاني اتخذ لنفسه اسما مستعارا وله ديوان باللغة التركية ولقد أدخل المياة إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة وكثر العمران وانتشر، واهتم بدور الشفاء وكان العلاج والأدوية مجانا يغشاها جميع الناس واهتم بالتجارة الصناعة وعمل على إنعاشهما بجميع الوسائل وعمل على تطوير دولته؛وقنن قوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية واهتم بوضع قوانين تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة ومع جيرانهم من المسلمين وتميز عصره بإنشاءات عسكرية عديدة متنوعة، فأقام دور صناعة عسكرية وقلاع وحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية توفى٣ مايو١٤٨١ .

الفارس الخامس

أبو عبد الرحمن موسى بن نصير

19هـ - 97 هـ

قائد عسكري في عصر الدولة الأموية شارك في غزو قبرص في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، ثم أصبح واليًا على أفريقية من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك، واستطاع ببراعة عسكرية أن ينهي نزعات البربر المتوالية للخروج على حكم الأمويين، كما أمر بغزو شبه جزيرة أيبيريا،وهو الغزو الذي أسقط حكم مملكة القوط في هسبانيا.

وهناك اختلاف على أصول موسى بن نصير، فقد ذكر ابن بشكوال أن اسمه موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد، وذكر بعض المؤرخين أن أباه كان مولى من موالي قبيلة لخم، وكان على حرس معاوية بن أبي سفيان، وقيل على شرطة معاوية عندما كان والياً على الشام في خلافة عمر وعثمان، ثم أصبح وصيفًا لعبد العزيز بن مروان، فأعتقه وذكر آخرون أنه ينتسب إلى بني بكر بن وائل، وأن أباه نصير كان من الذين أسرهم خالد بن الوليد في معركة عين التمر عام 12 هـ ، أما عن مولده،فقد ولد موسى عام 19هـ، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان، تولى موسى قيادة غزو قبرص وعام 73هـ ،نقل أخيه بشر من قيادة جند مصر إلى البصرة، وعينه

والياً عليها فأخذ بشر موسى معه لمعاونته، وعينه على خراج البصرة ولما ولي الحجاج البصرة،اتهم موسى باختلاس أموال خراج البصرة، فغضب عليه الخليفة عبد الملك بن مروان وأغرمه،ولم ينقذه من هذا الاتهام سوى عبد العزيز بن مروان، الذي تحمّل نصف الغرامة المالية،وأخذه معه لولايته في مصر وبعد أن لحق بعبد العزيز بن مروان في مصر، وجهه عام 84 هـ بحملة على برقة، فغنم وسبى ثم ولى عبد العزيز بن مروان والي مصر موسى بن نصير على أفريقية واستطاع موسى أن يخمد ثورات البربر ويعيد فتح المناطق التي انتزعها البربر من المسلمين بعد فتحها أول مرة، وبعث الغنائم إلى عبد العزيز الذي بعثها إلى الخليفة ، فسكن غضب عبد الملك على موسى واهتم موسى بنشر الإسلام بين البربر ومسالمتهم واستمالة رؤوسهم، ليضمن ألا ينزعوا للثورة مجددًا، فانضم إلى جيشه الآلاف منهم بعد إسلامهم ونظرًا للجوء البيزنطيين للغزوات البحرية بعد أن خسروا معاركهم البرية، شرع موسى في بناء دار صناعة قرب أطلال قرطاجنة لبناء أسطول قوي لحماية الثغور وعام 89 هـ، وجه موسى ابنه عبد الله لغزو جزر البليار، فافتتح ميورقة ومنورقة،كما أرسل حملات لغزو سردانية وصقلية،عادت محملة بالغنائم كما استطاع فتح طنجة، ولم يبق في المغرب الأقصى سوى سبتة التي كانت تحت حكم جوليان القوطي وفي عام 90 هـ، راسل الكونت جوليان موسى بن نصير وقيل قائده في

طنجة طارق بن زياد يدعو المسلمين لغزو الأندلس، لعداوة بينه وبين رودريك ملك القوط فكتب موسى للوليد يخبره بدعوة جوليان، فأمره باختبارها بالسرايا، ولا يغرر بالمسلمين بخوض بحر شديد الأهوال إلا أن موسى طمأنه بأنه ليس بحرًا وإنما خليج، فرد الوليد بأنه وإن كان خليجًا اختبره بالسرايا فأرسل موسى في رمضان 91 هـ سرية من 400 مقاتل ومائة فارس بقيادة طريف بن مالك، فنزلوا جزيرة سميت بعد ذلك بجزيرة طريف، أصابت مغانم كثيرة عندئذ، جهز موسى جيشًا من البربر وولى قيادته طارق بن زياد، وأمره بالعبور للأندلس عام 92 هـ فجاز طارق بجنوده في 5 رجب 92 هـ إلى موضع الجبل الذي ينسب إليه اليوم وحين بلغ رودريك خبر جيش طارق جمع جيشًا عظيمًا بلغ نحو مائة ألف مقاتل، وزحف به من عاصمته طليطلة وحين بلغ طارق خبر حجم حشود رودريك، استمد موسى فأمده بخمسة آلاف مقاتل، ليصبح جيشه 12,000مقاتل والتقى الجيشان في 28 رمضان 92 هـ/17 يوليو 711 م قرب شذونة جنوب بحيرة خندة عند وادي لكة، فهزم المسلمون جيش رودريك، وفر رودريك ولم يظهر مرة أخرى ثم قسم طارق جيشه فبعث مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك في سبعمائة فارس إلى قرطبة، وأرسل مجموعات إلى إلبيرة ورية، وتوجه هو إلى طليطلة ونجحت المجموعات في فتح تلك المناطق، كما دارت معركة صغيرة بين المسلمين والقوط

في تدمر، نتج عنها معاهدة بين المسلمين وقائد القوط وأرسل طارق إلى موسى يُعلمه بالفتح فأرسل موسى إلى الوليد بن عبد الملك يبشره، وإلى طارق يأمره بأن لا يستكمل الفتح ويبقى بقرطبة حتى يلحق به ثم عبر إلى الأندلس في رجب 93 هـ بعد نزوله الأندلس، سلك موسى طريقًا غير الذي سلكه طارق، وافتتح مدن شذونة وقرمونة وإشبيلية وباجة وماردة ثم ثار أهل إشبيلية على حاميتها من المسلمين وقتلوهم، فأرسل لهم موسى ولده عبد العزيز فأعاد فتحها، ومنها افتتح عبد العزيز لبلة ثم سار يريد طليطلة، فلقيه طارق في طلبيرة، ثم سارا معًا إلى طليطلة، ثم أرسل من افتتح سرقسطة ومدنها وفي عام 95 هـ، جاءت رسل الخليفة الوليد تدعو موسى للقدوم عليه، فخرج موسى ومعه طارق بن زياد ومغيث الرومي يريدون دمشق، واستخلف ولده عبد العزيز مكانه فاتخذ أشبيلية قاعدة له ووفد موسى ومعه طارق على الخليفة سليمان بن عبد الملك بعد وفاة الوليد عام 96 هـ وتقول الروايات العربية، أن سليمان راسل موسى يطالبه بأن يتأنى في القدوم، رغبة منه في أن يدخل عليه في صدر خلافته، وقد كان الوليد في مرض موته،فرفض، وجدّ في السير، وعند قدوم موسى أمر سليمان بعزله واتهمه باختلاس أموال وسجنه وأغرمه، ولم ينقذه سوى شفاعة يزيد بن المهلب الذي كانت له حظوة عند سليمان قال عنه ابن خلكان كان عاقلاً كريمًا شجاعًا ورعًا تقيًا ، لم يُهزم له جيشٌ قطّ.

الفارس السادس

سيف الدين قطز

سيف الدين قطز في الأصل هو محمود بن ممدود وجهان خاتون بنت خوارزم شاه ملك بلاد ما وراء النهر فارس الآن وكان أبوه قائداً لجيوش مملكة خوارزم وكانت هناك مناوشات وحروب بين التتار وخوارزم شاه إلى أن مات جده وأصبح خاله جلال الدين هو الملك وظل في حرب دائرة بينه وبين التتار إلى أن تشتت جنده وكاد أن يهزمه الجيش التترى وفقد ابنته جهاد وابن أخته محمود وهم كل ما تبقى من عائلته وبيعا جهاد ومحمود في سوق العبيد تحت أسماء جديدة جلنار (جهاد) وقطز (محمود) وكان سيف الدين قطز عبدًا لرجل يسمى ابن الزعيم بدمشق ثم بيع من يدٍ إلى يد حتى انتهى إلى عز الدين أيبك من أمراء مماليك البيت الأيوبي بمصر وتدرج في المناصب حتى صار قائدًا لجند أيبك،ثم قائدًا للجيوش عندما تولى عز الدين أيبك السلطنة مع شجرة الدر ويروي شمس الدين الجزري في تاريخه عن سيف الدين قطز لما كان في رقّ موسي بن غانم المقدسي بدمشق، ضربه سيده وسبّه بأبيه وجده، فبكى ولم يأكل شيئاً سائر يومه، فأمر ابن الزعيم الفرّاش أن يترضاه ويطعمه، فروى الفرّاش أنه جاءه بالطعام وقال له: كل هذا البكاء من لطمة؟ فقال قطز: إنما بكائي من

سَبّه لأبي وجدي وهما خير منه؛ فقلت: من أبوك؟ واحد كافر؟ فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك، فسكت وترضيته كما يروي أنه قال للعز بن عبد السلام أنه رأى رسول الله ﷺ وقد بشّره بأنه سيملك مصر ويكسر التتار فهناه وأكد له مارأى، وهذا يعني أن الرجل كان يعتبر نفسه صاحب مهمة، وأنه من الصلاح بحيث رأى رسول الله ﷺ واصطفاه الله بذلك كما أكرمه بالشهادة وادخر جزاءه العظيم له في الآخرة لذلك فهو مغمور في الدنيا، وأن كان له دور في صناعة التاريخ، وتغيير الواقع المؤسف الذي يحيط به من كل جانب ولا شك أن قطز كان مبعوث رحمة الله ومبعوث العناية الإلهية بالأمة العربية والإسلامية والعالم كي يخلص العالم من شر وخطر التتار للأبد ، وكان وصوله لحكم مصر من حسن حظها وحظ العالمين العربى والإسلامي وتذكر المصادر التاريخية عدة روايات عن أصل قطز فمنهم من يقول إن اسمه الحقيقي هو محمود بن ممدود الخوارزمي ابن أخت السلطان جلال الدين منكبرتي آخر السلاطين الخوارزميين واسم قطز أسماه له التتار حيث قاومهم بشراسة خلال اختطافهم وبيعهم له ومعنى قطز بلغة المغول الكلب الشرس وربما يكون تجار الرقيق هم الذين أعطوه هذا الاسم قطز من بين الأطفال الذين حملهم التتار إلى دمشق وباعوهم إلى تجار الرقيق.

قام الملك عز الدين أيبك بتعيين قطز نائبا للسلطنة ،وبعد أن قتل الملك المعز عز الدين أيبك على يد زوجته شجرة الدر،وقتلت من بعده زوجته شجرة الدر على يد جواري الزوجة الأولى لأيبك،تولى الحكم السلطان الطفل المنصور نور الدين علي بن عز الدين أيبك، وتولى سيف الدين قطز الوصاية على السلطان الصغير الذي كان يبلغ من العمر 15 سنة فقط فأحدث صعود الطفل نور الدين إلى الحكم اضطرابات كثيرة في مصر والعالم الإسلامي،وكانت تأتي من قبل بعض المماليك البحرية الذين مكثوا في مصر، ولم يهربوا إلى الشام مع من هرب منها أيام الملك المعز عز الدين أيبك، وتزعم أحد هؤلاء المماليك البحرية واسمه سنجر الحلبي الثورة، وكان يرغب في الحكم بعد مقتل عز الدين أيبك، فحبسه قطز كذلك قبض قطز على بعض رءوس الثورات المختلفة، فأسرع بقية المماليك البحرية إلى الهرب إلى الشام،وذلك ليلحقوا بزعمائهم ولما وصل المماليك البحرية إلى الشام شجعوا الأمراء الأيوبيين على غزو مصر، واستجاب لهم بالفعل بعض هؤلاء الأمراء، ومنهم مغيث الدين عمر أمير الكرك فتقدم بجيشه لغزو مصر ووصل بالفعل إلى مصر، وخرج له قطز فصدّه عنها في ذي القعدة من سنة 655هـ، ثم عاد مغيث الدين تراوده الأحلام لغزو مصر من جديد، ولكن صدّه قطز مرة أخرى في ربيع الآخر سنة 656هـ.

كان قطز محمود بن ممدود بن خوارزم شاه يدير الأمور فعلياً في مصر ،لكن السلطان طفل، فرأى قطز أن هذا يضعف من هيبة الحكم في مصر، ويزعزع من ثقة الناس فى ملكهم، ويقوي من عزيمة الأعداء إذ يرون الحاكم طفلاً فقد كان السلطان الطفل مهتماً بمناقرة الديوك، ومناطحة الكباش، وتربية الحمام، وركوب الحمير في القلعة، تاركاً لأمه ومن وراءها تسيير أمور الدولة في تلك الأوقات العصيبة،وقد استمر هذا الوضع الشاذ قرابة ثلاث سنوات،على الرغم من تعاظم الأخطار وسقوط بغداد بيد المغول، وكان من أشد المتأثرين بذلك والمدركين لهذه الأخطار الأمير قطز، الذي كان يحزّ في نفسه ما كان يراه من رعونة الملك، وتحكم النساء في مقدرات البلاد، واستبداد الأمراء، وإيثارهم مصالحهم الخاصة على مصلحة البلاد والعباد هنا اتخذ قطز القرار الجريء، وهو عزل السلطان الطفل نور الدين علي، واعتلاء قطز عرش مصر حدث هذا الأمر في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة 657 هـ، أي قبل وصول هولاكو إلى حلب بأيام ومنذ أن صعد قطز إلى كرسي الحكم وهو يعدّ العدّة للقاء التتار.

عندما تولى قطز الحكم كان الوضع السياسي الداخلي متأزماً للغاية، كما كان هناك أزمة اقتصادية طاحنة تمر بالبلاد من جراء الحملات الصليبية المتكررة، ومن جراء الحروب التي دارت بين مصر وجيرانها من الشام، ومن جراء الفتن والصراعات على المستوى الداخلي فعمل

قطز على إصلاح الوضع في مصر خلال اعداده للقاء التتار وقطع قطز أطماع المماليك في الحكم عن طريق توحيدهم خلف هدف واحد،وهو وقف زحف التتار ومواجهتهم، فقام بجمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر، وقال لهم في وضوح   إني ما قصدت من السيطرة على الحكم إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم فهدأ معظم الحضور ورضوا بذلك كما قام قطز بتعيين أمراء من المماليك البحرية،رغم أنه نفسه من المماليك المعزية التي كانت على خلاف مع المماليك البحرية، فقام بإقرار فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي مكانه كقائد للجيش، حيث وجد فيه كفاءة عسكرية وقدرة قيادية عالية وكان هناك خلاف كبير بين المماليك البحرية وبين المماليك المعزية، عندما قتل سيف الدين قطز بالتدبير مع السلطان المعز ومن ورائه زوجته، فارس الدين أقطاي وزير الحرب ووالي الإسكندرية ،وزعيم المماليك البحرية سنة 652هـ،الامر الذي جعل الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري يفر إلي الشام مقتنعاً بأنه كان الهدف التالي لمؤامرة شجرة الدر مع زوجها السلطان المعز ونائبه قطز ثم بدأ الخلاف يتفاقم تدريجياً إلى أن وصل إلى الذروة بعد مقتل أيبك بواسطة شجرة الدر التي دفعتها الغيرة الزوجية لذلك عندما علمت أن السلطان اصطفي له جارية من الحريم ثم قتل قطز لشجرة الدر في ١6 أبريل ١٢57 م،ووصل الأمر

إلى أن معظم المماليك البحرية فروا من مصر إلى مختلف إمارات الشام، ومنهم من شجع أمراء الشام على غزو مصر مثلما فعل بيبرس مع ملك دمشق الناصر يوسف وملك الكرك والشوبك المغيث عمر، فلما اعتلى قطز عرش مصر قبل الصلح مع بيبرس الذي أرسل الرسل لقطز كي يتحدا للتصدي لجيوش المغول التي كانت قد دخلت دمشق آسرة الناصر يوسف ملكها فاستقبل قطز المماليك الفارين استقبالاً لائقاً، كما استقدم ركن الدين بيبرس، فلما قدم بيبرس إلى مصر، عظّم قطز من شأنه جداً، وأنزله دار الوزارة، وأقطعه قليوب وما حولها من القرى، وعامله كأمير من الأمراء المقدّمين، بل وجعله على مقدمة الجيوش في معركة عين جالوت وكانت العلاقات مع إمارات الشام الأيوبية متوترة جداً، وقد فكروا أكثر من مرة في غزو مصر، ونقضوا الحلف الذي كان بين مصر والشام أيام الصالح أيوب، واستقطبواالمماليك البحرية عندهم عندما فروا من مصر، بل إن الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق وحلب كان قد طلب من التتار بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر.

سعى قطز إلى الوحدة مع الشام، أو على الأقل تحييد أمراء الشام، فيخلوا بينه وبين التتار دون أن يتعاونوا مع التتار ضده فأرسل قطز رسالة إلى الناصر يوسف الأيوبيي عرض عليه الوحدة، على أن يكون الناصر يوسف الأيوبي هو ملك مصر والشام، فإن تشكك الملك الناصر الأيوبي في نية قطز فيستطيع قطز أن يمده بالقوات للمساعدة في قتال

التتار كما ترك قطز للملك الناصر اختيار قائد الجيش المصري الذي يذهب لنجدته في الشام، ولكن الناصر الأيوبي رفض ذلك فسقطت كل من حلب ودمشق في يد التتار وفر الملك الناصر الأيوبي إلى فلسطين بعد فرار الناصر الأيوبي انضم إلى قطز جيش الناصر، فازدادت بذلك قوة الجيش المصري وراسل قطز بقية أمراء الشام، فاستجاب له الأمير المنصور صاحب حماة، وجاء من حماة ومعه بعض جيشه للالتحاق بجيش قطز في مصر أما المغيث عمر صاحب الكرك، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي فقد فضلاً الحلف مع المغول والخيانة أما الأخير وهو الملك السعيد حسن بن عبد العزيز صاحب بانياس فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضاً قاطعاً، بل انضم بجيشه إلى قوات التتار ليساعدهم في محاربة المسلمين.

اقترح قطز أن تفرض على الناس ضرائب لدعم الجيش، وهذا قرار يحتاج إلى فتوى شرعية، لأن المسلمين في دولة الإسلام لا يدفعون سوى الزكاة، ولا يدفعها إلا القادر عليها، وبشروط الزكاة المعروفة، أما فرض الضرائب فوق الزكاة فهذا لا يكون إلا في ظروف خاصة جداً، ولابدّ من وجود سند شرعي يبيح ذلك فاستفتى قطز الشيخ العز بن عبد السلام فأفتى قائلاً : إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء وأن تبيعوا مالكم من ممتلكات وآلات، ويقتصر كل

منكم على فرسه وسلاحه، وتتساووا في ذلك أنتم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا قبل قطز كلام الشيخ وبدأ بنفسه، فباع كل ما يملك،وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع، وتم تجهيز الجيش كله.

بينما كان قطز يعد الجيش والشعب للقاء التتار وصل رسل هولاكو يحملون رسالة تهديد لقطز جاء فيها: بسم إله السماء الواجب حقه، الذي ملكنا أرضه، وسلّطنا على خلقه الذي يعلم به الملك المظفر الذي هو من جنس المماليك صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتابها وعمالها، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها أنّا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلّطنا على من حل به غيظه فلكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم، وسلّموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب فأي أرض تأويكم؟ وأي بلاد تحميكم؟وأي ذلك ترى؟ ولنا الماء والثرى؟ فما لكم من سيوفنا خلاص،ولا من أيدينا مناص فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا لواحق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال فالحصون لدينا لا تمنع، والجيوش لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، لأنكم أكلتم الحرام،وتعاظمتم عن رد السلام، وخنتم الأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان فأبشروا بالمذلة

والهوان (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون) (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) وقد ثبت أن نحن الكفرة وأنتم الفجرة وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة،والأحكام المقدرة فكثيركم عندنا قليل،وعزيزكم لدينا ذليل، وبغير المذلة مالملوككم علينا من سبيل فلا تطيلوا الخطاب،وأسرعوا رد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها، وتوري شرارها فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً، ولا كتاباً ولا حرزاً، إذ أزتكم رماحنا أزاً وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية فقد أنصفناكم، إذ أرسلنا إليكم، ومننا برسلنا عليكم فجمع قطز القادة والمستشارين وأطلعهم على الرسالة، وكان من رأي بعض القادة الأستسلام للتتار وتجنب ويلات الحرب، فما كان من قطز إلا أن قال :أنا ألقى التتار بنفسي يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون من بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، وإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين عن القتال، فتحمس القواد والأمراء لرؤية قائدهم يقرر الخروج لمحاربة التتار بنفسه، بدلاً من أن يرسل جيشاً ويبقى هو ونادى قطز: يا أمراء المسلمين، من للإسلام إن لم نكن نحن فقام الأمراء يعلنون موافقتهم على الجهاد، وعلى مواجهة التتار مهما كان الثمن وقام بقطع أعناق رسل هولاكو برسالة التهديد، وعلّق رءوسهم في الريدانية في القاهرة وأبقي علي الخامس والعشرين

ليحمل الأجساد لهولاكو وأرسل الرسل في الديار المصرية تنادى بالجهاد في سبيل الله ووجوبه وفضائله وكان العز بن عبد السلام ينادى في الناس بنفسه فهب نفر كثير ليكونوا قلب وميسرة جيش المسلمين أما القوات النظامية من المماليك فكونت الميمنة وأختبأت بقيتها خلف التلال حتى المعركة وكانت الحرب ضارية وكان النصر حليفاً للمسلمين ،يروي ابن خلدون قصة مقتل قطز فيقول كان البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاي الجامدار يتحينون لأخذ ثأره وكان قطز هو الذي قتله فكان مستريباً بهم ولما سار إلى التتر ذهل كل منهم عن شأنه وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لأنفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله فأمنهم واشتمل عليهم وشهدوا معه واقعة التتر وأبلغوا فيها وفيهم بيبرس فلما انهزم التتر في الشام واستولوا عليه وحسر ذلك المد وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثأر أقطاي فلما قفل قطز من دمشق سنة ثمان وخمسين أجمعوا أن يبرزوا له في طريقهم فلما قارب مصر ذهب في بعض أيامه للصيد فاتبعوه وتقدم إليه بيبرس بالسيف فخر صريعاً لليدين والفم ورشقه الآخرون بالسهام فقتلوه وولوا بيبرس واتبعه أهل المعسكر ولقبوه بالقاهر وبعثوا بالخبر إلى القلعة فى مصر فأخذ له البيعة من هناك ووصل القاهر منتصف ذي القعدة من السنة فجلس على كرسيه ولكنه غير لقبه إلى الظاهر.

الفارس السابع

الأمير عبد القادر بن محي الدين

المعروف بعبد القادر الجزائري ولد قرب مدينة معسكر بغرب الجزائر يوم الثلاثاء 6 سبتمبر 1808الموافق 15 رجب 1223 هـ،هو رائد سياسي وعسكري مقاوم تقدم جيش أفريقيا خمسة عشر عاماً أثناء غزو فرنسا للجزائر وأيضاً كاتب وشاعر وفيلسوف وصوفي.

مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورمز للمقاومة ضد الاستعمار خاض معارك ضد الاحتلال الفرنسي للدفاع عن الوطن وبعدها نفي إلى دمشق وتوفي فيها عبد القادر عالم الدين، الشاعر، الفيلسوف، السياسي والمحارب في آن واحد اشتهر بمناهضته للاحتلال الفرنسي للجزائر وتوفي يوم 26 مايو 1883 بدمشق.

من آل بيت الرسول ﷺ كان عبد القادر الابن الثالث لمحي الدين:شيخ الطريقة الصوفية القادرية ومؤلف كتاب ارشاد المريدين الموجه للمبتدئين وأمه الزهرة بنت الشيخ سيدي بودومة شيخ زاوية حمام بوحجر وكانت سيدة مثقفة وكان تعليمه الديني صوفياً،أجاد القراءة والكتابة وهو في الخامسة،كما نال الإجازة في تفسير القرآن والحديث وهو في

الثانية عشرة من عمره ليحمل سنتين بعد ذلك لقب حافظ وبدأ بإلقاء الدروس في الجامع التابع لأسرته في الفقه وشجعه والده على الفروسية وركوب الخيل ومقارعة الأنداد والمشاركة في المسابقات التي تقام آنذاك فأظهر تفوقا مدهشا ثم بعثه والده إلى وهران لطلب العلم من علمائها، فحضر دروس الشيخ أحمد بن الخوجة فازداد تعمقا في الفقه كما طالع كتب الفلاسفة وتعلم الحساب والجغرافيا، على يد الشيخ أحمد بن الطاهر البطيوي قاضي أرزيو وقد دامت هذه الرحلة العلمية ما يقرب من سنتين 1237-1239 هـ وبعد عودته إلى بلدة القيطنة وكان قد بلغ الخامسة عشر بادر والده إلى تزويجه واختار ابنة عمه لالة خيرة زوجة له فهي تجمع بين محاسن الخلق والنسب الشريف وكان محي الدين بالإضافة لكونه شيخ الطريقة القادرية ذو مكانة رفيعة بين عامة الناس ومن كبار أعيانهم وقد دفعت آرائه الحاكم العثماني لوهران إلى تحديد إقامته ببيته وهو ما دفعه للتفكير فى الخروج لأداء فريضة الحج والابتعاد عن هذا الجو المشحون.

أذن لمحي الدين بالخروج لفريضة الحج عام 1241 هـ 1825، فخرج واصطحب ابنه عبد القادر معه وهو في سن الثامنة عشرة، فكانت رحلة إلى الحجاز، ثم العودة إلى الجزائر وما لبث الوالد وابنه أن استقرا في قريتهم قيطنة، ولم يمض وقت طويل حتى تعرضت الجزائر لحملة عسكرية فرنسية شرسة، وتمكنت فرنسا من احتلال العاصمة فعلاً في 5

يوليو 1830،واستسلم الحاكم العثماني الداي حسين ،ولكن الشعب الجزائري كان له رأي آخر.

تلقى الشاب مجموعة أخرى من العلوم فقد درس الفلسفة ـرسائل إخوان الصفاـ أرسطوطاليس ـ فيثاغورس ودرس الفقه والحديث فدرس البخاري ومسلم، وقام بتدريسهما،كما تلقى الألفية في النحو والسنوسية والعقائد النسفية في التوحيد،وايساجوجي في المنطق ، والإتقان في علوم القرآن، وبهذا اكتمل للأمير العلم الشرعي، والعلم العقلي، والرحلة والمشاهدة.

فرّق الشقاق بين الزعماء كلمة الشعب، وبحث أهالي وعلماء جريس عن زعيم يأخذ اللواء ويبايعونه على الجهاد تحت قيادته، واستقر الرأي على محيي الدين الحسني وعرضوا عليه الأمر، ولكن الرجل اعتذر عن الإمارة وقبل قيادة الجهاد،فأرسلوا إلى صاحب المغرب الأقصى عبد الرحمن بن هشام ليكونوا تحت إمارته فقبل سلطان المغرب وأرسل ابن عمه علي بن سليمان ليكون أميرًا على المنطقة ، وقبل أن تستقر الأمور تدخلت فرنسا مهددة السلطان بالحرب، فانسحب السلطان واستدعى ابن عمه ليعود الوضع إلى نقطة الصفر من جديد ولما كان محيي الدين قد رضي بمسئولية القيادة العسكرية، فقد التفت حوله الجموع من جديد، خاصة أنه حقق عدة انتصارات على العدو، وقد كان عبد القادر على رأس الجيش في كثير من هذه الانتصارات اقترح محي الدين إبنه عبد

القادر لهذا المنصب وجمع الناس لبيعته فقبل الحاضرون من علماء وكبراء ووجهاء القوم، وقبل الشاب تحمل هذه المسؤولية، وتمت البيعة، ولقبه والده بناصر الدين واقترحوا أن يكون سلطان ولكنه اختار لقب الأمير وكان ذلك في 3 رجب 1248هـ - 27 نوفمبر 1832 م وهو ابن اربعة وعشرون سنة.

توجه الأمير بعد البيعة إلى معسكر ووقف خطيباً في مسجدها أمام الجموع الكبيرة فحث الناس على الانضباط والالتزام ودعاهم إلى الجهاد والعمل وبعد الانصراف أرسل الأمير الرسل والرسائل إلى بقية القبائل والأعيان الذين لم يحضروا البيعة لإبلاغهم بذلك، ودعوتهم إلى مبايعته أسوة بمن أدى واجب الطاعة ولما ذاع خبر البيعة الأولى بادر أعيان القبائل التي لم تبايع إلى المبايعة فتمت وحررت وثيقة للبيعة وقرئت على الشعب وتولى كتابتها أحد علماء المنطقة وعندما تولى عبد القادر الإمارة كان الوضع الاقتصادي والاجتماعي صعب، فلم يكن لديه مال كافي لإقامة دعائم الدولة إضافة للمعارضين لإمارته، ولكنه لم يفقد الأمل إذ كان يدعو باستمرار إلى وحدة الصفوف وترك الخلافات الداخلية ونبذ الأغراض الشخصية وكان يعتبر منصبه تكليفا لا تشريفا وفي نداء له بمسجد معسكر خطب قائلاً: اذا كنت قد رضيت بالامارة، فانما ليكون لي حق السير في الطليعة والسير بكم في المعارك في سبيل الله فالإمارة ليست هدفي فأنا مستعد لطاعة أيّ قائد آخر ترونه أجدر منّي وأقدر على

قيادتكم شريطة أن يلتزم خدمة الدّين وتحرير الوطن منذ الأيام الأولى لتولّيه الإمارة وكتب بيانا أرسله إلى مختلف القبائل التي لم تبايعه بعد وجعل الأمير وحدة الأمة أساس لنهضة دولته واجتهد في تحقيق هذه الوحدة رغم عراقيل الاستعمار والصعوبات التي لاقاها من بعض رؤساء القبائل الذين لم يكن وعيهم السياسي في مستوى عظمة المهمة وكانت طريقة الأمير في تحقيق الوحدة الإقناع أولاً والتذكير بمتطلبات الإيمان والجهاد، ولقد كلفته حملات التوعية جهوداً كبيرة لأن أكثر القبائل كانت قد اعتادت حياة الاستقلال ولم تألف الخضوع لسلطة مركزية قوية وبفضل إيمانه القوي انضمت إليه قبائل كثيرة دون أن يطلق رصاصة واحدة لاخضاعه بل كانت بلاغته وحجته كافيتين ليفهم الناس أهدافه في تحقيق الوحدة ومحاربة العدو، لكن عندما لا ينفع أسلوب التذكير والإقناع، يشهر سيفه ضدّ من يخرج عن صفوف المسلمين أو يساعد العدوّ لتفكيك المسلمين، وقد استصدر الأمير فتوى من العلماء تساعده في محاربة أعداء الدّين والوطن.

قام الأمير بإصلاحات اجتماعية وحارب الفساد الخلقي ومنع الخمر والميسر منعاً باتاً ومنع التدخين ليبعد المجتمع عن التبذير، كما منع استعمال الذهب والفضة للرّجال لأنّه كان يكره حياة البذخ والميوعة وكان يرمي إلى هدفين:تكوين جيش منظم وتأسيس دولة موحّدة، وكان مساعدوه في هذه المهمة مخلصون ولقد بذل مع أعوانه جهداً كبيراً

لاستتباب الأمن، فبفضل نظام الشرطة الذي أنشأه قُضِي على قطّاع الطرق الذين كانوا يهاجمون المسافرين ويتعدّون على الحرمات، فأصبح الناس يتنقّلون في أمان وانعدمت السرقة.

قسّم الأمير الوطن إلى 8 وحدات:مليانة، معسكر، تلمسان، الأغواط، المدية، برج بو عريريج، برج حمزة(البويرة)،بسكرة، سطيف،كما أنشأ مصانع للأسلحة وبنى الحصون والقلاع(تأقدمات، معسكر، سعيدة) وشكل وزارته التي كانت تتكون من5 وزارات وجعل مدينة معسكر مقراً لها، واختار أفضل الرجال ممّن تميّزهم الكفاءة العلمية والمهارة السياسية إلى جانب فضائلهم الخلقية، ونظّم ميزانية الدولة وفق مبدأ الزكاة لتغطية نفقات الجهاد، كما اختار رموز العلم الوطني وشعار للدولة نصر من الله وفتح قريب.

ولبطولة الأمير اضطرت فرنسا إلى عقد اتفاقية هدنة معه وهي اتفاقية دي ميشيل عام 1834 ، وبهذه الاتفاقية اعترفت فرنسا بدولة الأمير عبد القادر، وبذلك بدأ الأمير يتجه إلى أحوال البلاد ينظم شؤونها ويعمرها ويطورها، وقد نجح في تأمين بلاده إلى الدرجة التي عبر عنها مؤرخ فرنسي بقوله :يستطيع الطفل أن يطوف ملكه منفرداً، على رأسه تاج من ذهب، دون أن يصيبه أذى وكان قد انشا عاصمة متنقلة كأي عاصمة أوروبية متطورة آنداك سميت الزمالة وكان قد أسّس قبلها عاصمة بعد غزو الجيش الفرنسي لمدينة معسكر في الحملة التي قادها

كلوزيل،ووضع خطة تقضي بالانسحاب إلى أطراف الصحراء لإقامة آخر خطوطه الدفاعية وهناك شيد العاصمة الصحراوية ،تكدمت وقد بدأ العمل فيها بإقامة ثلاث حصون عسكرية، ثم أعقبها بالمباني والمرافق المدنية والمساجد الخ، وهناك وضع أموال الدولة التي أصبحت في مأمن من غوائل الغزاة ومفاجئاتهم وقد جلب إليها سكانا من مختلف المناطق من الكنغوليين وسكان آرزيو ومستغانم ومسرغين والمدية.

وقبل أن يمر عام على الاتفاقية نقض القائد الفرنسي الهدنة، وناصره في هذه المرة بعض القبائل في مواجهة الأمير عبد القادر، ونادى في قومه بالجهاد ونظم الجميع صفوف القتال، وكانت المعارك الأولى رسالة قوية لفرنسا خاصة موقعة المقطع حيث نزلت بالقوات الفرنسية هزائم قضت على قوتها الضاربة تحت قيادة تريزيل الحاكم الفرنسي ولكن فرنسا أرادت الانتقام فأرسلت قوات جديدة وقيادة جديدة، واستطاعت القوات الفرنسية دخول العاصمة وأحرقتها، ولولا مطر غزير أرسله الله في هذا اليوم ما بقى فيها حجر على حجر، ولكن الأمير استطاع تحقيق مجموعة انتصارات دفعت فرنسا لتغيير القيادة من جديد ليأتي القائد الفرنسي الماكر الجنرال بيجو؛ ولكن الأمير نجح في إحراز نصر على القائد الجديد في منطقة وادي تافنة أجبرت القائد الفرنسي على عقد معاهدة هدنة جديدة عُرفت باسم معاهد تافنة في عام 1837 م وعاد الأمير لإصلاح حال بلاده وترميم ما أحدثته المعارك بالحصون والقلاع

وتنظيم شؤون البلاد، وفي نفس الوقت كان القائد الفرنسي بيجو يستعد بجيوش جديدة، ويكرر الفرنسيون نقض المعاهدة في عام 1839 م، وبدأ القائد الفرنسي يلجأ إلى الوحشية في هجومه على المدنيين العزل فقتل النساء والأطفال والشيوخ، وحرق القرى والمدن التي تساند الأمير ،واستطاع القائد الفرنسي أن يحقق عدة انتصارات على الأمير عبد القادر،ويضطره إلى اللجوء إلى بلاد المغرب الأقصى،ويهدد الفرنسيون السلطان المغربي ، ولم يستجب السلطان لتهديدهم في أول الأمر، وساند الأمير في حركته من أجل استرداد وطنه، ولكن الفرنسيين يضربون طنجة وبوغادور بالقنابل من البحر، وتحت وطأة الهجوم الفرنسي يضطرالسلطان إلى توقيع معاهدة لالة مغنية وطرد الأمير من المغرب الأقصى.

كان لتحييد المغرب ووقف مساعداته للمجاهدين الجزائريين دور كبير في إضعاف قوات الأمير عبد القادر،الأمر الذي حد من حركة قواته، ورجح كفة القوات الفرنسية، فلما نفد ما لدى الأمير من إمكانيات لم يبقى أمامه سوى الاستسلام حقناً لدماء من تبقى من المجاهدين والأهالي، وتجنيباً لهم من بطش الفرنسيين، وفي ديسمبر 1847م اقتيد عبد القادر إلى أحد السجون بفرنسا،وفي بداية الخمسينات أفرج عنه شريطة ألا يعود إلى الجزائر، فسافر إلى تركيا ومنها إلى دمشق عام 1855م،عندما وصل الأمير وعائلته وأعوانه إلي دمشق،أسس ما عرف

برباط المغاربة في حي السويقة،وهو حي ما زال موجوداً إلي اليوم، وسرعان ما أصبح ذا مكانة بين علماء ووجهاء الشام،وقام بالتدريس في المدرسة الأشرفية، ثم الجامع الأموي، الذي كان أكبر مدرسة دينية في دمشق آنذاك،وسافر للحج ثم عاد ليتفرغ للعبادة والعلم والأعمال الخيرية، وفي مايو 1883 م توفي الأمير عبد القادر الجزائري ودفن في سوريا ولم يكن جهاد الأمير عبد القادر ضد قوى الاستعمار بالجزائر،هو كل رصيده الإنساني، فقد ترك العديد من المؤلفات القيمة ترجمت إلى عدة لغات، وعقب حصول الجزائر على الاستقلال تم نقل رفاته إلى الجزائر بعد حوالي قرن قضاه خارج بلاده، وفي 3 إبريل 2006 م افتتحت المفوضة السامية لحقوق الإنسان بجنيف معرضاً خاصاً للأمير في جنيف إحياءً لذكراه، كما شرعت سورية في ترميم وإعداد منزله في دمشق ليكون متحفاً يُجسد تجربه الجهاد من أجل استقلال بلاده.

الفارس الثامن

طارق بن زياد

قائد عسكري مسلم وُلد في المغرب الأوسط ، قاد الغزو الإسلامي لشبة جزيرة أيبيرية خلال الفترة الممتدة بين عاميّ 711 و718م بأمر من موسى بن نصير والي أفريقية في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك يُنسب إلى طارق بن زياد إنهاء حكم القوط الغربيين لهسبانيا وإليه أيضًا يُنسب جبل طارق وهو الموضع الذي وطأه جيشه في بداية غزوه للأندلس ويُعتبرُ طارق بن زياد أحد أشهر القادة العسكريين في التاريخين الأيبيري والإسلامي على حدٍ سواء، وتُعدّ سيرته العسكريّة من أنجح السير التاريخيّة.

اختلف المؤرخون حول أصول طارق بن زياد، فمنهم من قال أنّه عربي كابن خلكان، ومنهم من قال أنّه بربري أمازيجي كابن عذاري، وآخرون قالوا أنّه فارسي لكن يغلب الظن أنه أمازيجي، وهو الشائع بين الناس كذلك اختلفوا حول نهاية هذا الرجل وكيف كانت، ومن المعروف أنّه عاد إلى دمشق بصحبة موسى بن نصير بعد أن استدعاهما الخليفة الوليد بن عبد الملك، وقيل أنّ سبب ذلك هو خلافٌ وقع بينهما واحتدّ، وفي جميع الأحوال فقد عُزل

كلٌّ منهما عن منصبه، وأمضى طارق بن زياد أواخر أيّامه في دمشق إلى أن وافته المنيّة سنة 720م وترك طارق بن زياد إرثًا كبيرًا بعد وفاته تمثّل فى بقاء شبه جزيرة أيبيريّة تحت حكم المسلمين زهاء 8 قرون، وفي وقتٍ لاحق خلال القرن العشرين أطلق اسمه على عدد من المواقع في البلدان الإسلاميّة وبالأخص في المغرب العربي.

يتّفق أغلب المؤرخين المسلمين المعاصرين، من عرب وأمازيج، وإسبان،أنّ طارق بن زياد كان مولى موسى بن نصير والي أفريقية، وأنّ الأخير عيّنه أميرًا على برقة بعد مقتل زهير بن قيس البلوي في طبرق عام 76هـ ولم يلبث طارق بن زياد طويلًا في هذا المنصب،إذ أنه سرعان ما اختير قائدًا لجيش موسى بن نصير، فأبلى بلاءً حسنًا في حروبه، وأظهر أنّه فارسٌ شجاعٌ مقدام، وغازٍ باطّش وظهرت لموسى بن نصير قدرة تابعه هذا في اقتحام المعارك،ومهارته في قيادة الجيش، فولّاه على مقدمة جيوشه فى المغرب الأوسط ، وهكذا أتيح لطارق بن زياد أن يتولّى قيادة جيوش موسى، فسيطر الأمويّون على ما تبقى من حصون المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسي، وشارك طارق في إرساء الأمن بالمغرب حتى بلغ مدينة الحسيمة،قصبة بلاد المغرب، وأم مدائنها، فحاصرها حتى دخلها وأسلم أهلها وبهذا تمّ فتح شمال أفريقيا بكامله، وعُيّن طارق بن زياد واليًا على طنجة مكافأةً له على إخلاصه للإسلام والخلافة .

بعد نجاح العمليّات العسكريّة لطارق بن زياد، تمّ لموسى بن نصير السيطرة على كامل المغرب الأقصى، وامتد النفوذ الأموي الإسلامي إلى تلك المناطق وأصبحت جزءًا من العالم الإسلامي،غير أنه بقيت فقط سبتة التي كان يحكمها حاكم قوطي يدعى يوليان خارج نطاق سيطرة المسلمين.

كانت عادة أشراف القوط أن يرسلوا أولادهم إلى بلاط ملكهم للتعليم والتنشئة هناك وحدث أن اغتصب لذريق ملك القوط ابنة يوليان،مما أغضب الأخير،وقرر أن ينتقم بدعوة المسلمين لغزو القوط كما يبدو أنّ يوليان هذا كان يمتلك بعض الإقطاعات في جنوبي أيبيريا، وهو على صلات حسنة مع حكّام البلاد السابقين آل غيشطة، وتحالف مع أخيلا المُطالب بالعرش الإسباني للتخلّص من حكم لذريق، كما كان رسول آل غيشطة إلى المسلمين ولمّا تاخم المسلمون حدود بلاده وجد في قوّتهم خير من يُساعده في تحقيق هدفه، كما أراد أن يُقِّدمَ إليهم خدمة جليلة بعد أن أضحوا أسياد المنطقة، فقرر أن يؤدي دور الوسيط في تشجيعهم على العبور إلى إسبانيا، فراسل موسى بن نصير وقيل طارق بن زياد يدعوهم لعبور المضيق وغزو القوط، وأعدّ لهم السفن اللازمة للعبور، وبيّن لهم حسن البلاد وفضلها وما تحتويه من الخيرات، وهوّن حال رجالها ووصفهم بالضعف ويبدو أنّ طارق بن زياد كان يُراوده حلم اجتياز المياه إلى الضفة المُقابلة، كما أنه في الواقع أنّه لم يكن لدى موسى بن نصير

ما يدعوه إلى رفض هذه الفكرة، ذلك لأنّ الأمر قد يتطوّر إلى صورة فتح إسلامي شامل لهذا البلد يُدخله في دائرة الدولة الإسلاميّة إلّا أنّ عملًا ضخمًا من هذا النوع لا بد وأن ينال موافقة الخليفة في دمشق، لذلك كتب موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك يُبلغه عرض يوليان ويستأذنه في العبور تردد الوليد في بادئ الأمر خشيةً على المسلمين من أن يُغرّر بهم، وأمر موسى بأن يتروّى في الأمر، وأن يختبر البلاد بالسرايا بناءً على هذا أرسل موسى أحد ضبّاطه ويُدعى طريف بن مالك المعافري، وهو من البربر، على رأس قوّة عسكريّة وأمره بالغارة على ساحل إسبانيا الجنوبي نزل طريف وجنوده في جزيرة بالوماس، وأغار على المناطق التي تليها إلى جهة الجزيرة الخضراء وأصاب سبيًا كثيرًا وعاد مُحمّلًا بالغنائم، فأقنعت هذه الحملة كلٍّ من الخليفة وموسى بن نصير بضعف وسائل الدفاع الإسباني وفي 5 رجب 92هـ/29 أبريل 711م، أرسل موسى بن نصير طارق بن زياد على رأس جيشٍ عظيم وصل تعداد أفراده إلى نحو 7,000 رجل معظمهم من البربر عبر طارق بن زياد وجيشه المضيق الفاصل بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، ونزل في رأس شبه جزيرة أيبريّة في الموضع الذي يعرف اليوم بجبل طارق، وسيطر على ذلك الموقع بعد أن اصطدم بالحامية القوطيّة أقام القائد المسلم عدّة أيّام في قاعدة الجبل نظّم خلالها جيشه، وأعدّ خطّة لفتح القلاع القريبة، والتوغّل في عمق إسبانيا، ونجح في فتح بعض القلاع

والمدن منها قرطاجنة والجزيرة الخضراء، ثمّ تقدم باتجاه الغرب حتى بلغ خندة جنوبي غربي إسبانيا التي يقطعها نهر برباط عبر وادي لكة الشهير، وعسكر هناك

عندما علم لذريق بعبور جيش طارق، جمع جيشًا بلغ نحو 100,000 رجل وسار لقتالهم، وعلم طارق بن زياد بواسطة جواسيسه بأنباء الحشود الضخمة التي حشدها لذريق،فراسل موسى بن نصير يستمده، فأرسل له 5,000 رجل آخر تقابل الجيشان في 28 رمضان 92هـ/19 يوليو 711م عند وادي لكة من كورة شذونة،على بعد أميال إلى الشرق من قادش، وجرت بينهما معركة طاحنة، أسفرت عن انتصار حاسم لجيش طارق بن زياد، وتمّ القضاء على الجيش القوطي ومعه الملك، وتشير بعض المصادر إلى أنّ طارق بن زياد هو من قتل لذريق بيده، إذ رماه برمحه فأرداه قتيلًا على الفور، وجعل يصيح: قتلت الطاغية قتلت لذريق نصح يوليان طارق بن زياد بتقسيم جيشه لفتح المدن الهسبانية، فأرسل طارق مفارز فتحت قرطبة وإلبيرة وغيرها ،وسار بنفسه يريد طليطلة عاصمة القوط وبحكم الأمر الواقع، أصبح طارق حاكمًا على الأندلس وبعد أن تمّ له فتح طليطلة، راسل موسى بن نصير يطلب منه المدد لتعويض النقص في عدد الجنود ولتوطين ما يلزم من الرجال في المدن حديثة الفتح حتى يُدافعوا عنها، فكتب قائلاً: إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث ردّ موسى بن نصير

على طارق بن زياد يأمره بألّا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، وفي شهر رمضان من عام 93هـ/يونيو 712،أقلع موسى بن نصير إلى الجزيرة الخضراء على رأس قوة عسكريّة ضخمة وفتح عدّة مدائن أخرى أثناء توجهه لمقابلة طارق بن زياد وعام 95هـ،وبعد أن فتحا مناطق واسعة من شبة جزيرة أيبيريا، جاءت رسل الخليفة الوليد بن عبد الملك تستدعي موسى بن نصير وقائده طارق بن زياد إلى دمشق، لينتهي بذلك دورهما كقادة عسكريين في فتح الأندلس توجه طارق بن زياد بصحبة موسى بن نصير إلى دمشق ومعه أربعمائة من أفراد الأسرة المالكة وجموع من الأسرى والعبيد والعديد من النفائس ولمّا وصلا طبرية في فلسطين طلب منهما سليمان بن عبد الملك ولي العهد التأخّر حتى يموت الخليفة الوليد الذي كان يصارع الموت لكنهما تابعا تقدّمهما ودخلا مع الغنائم إلى دمشق وعندما تولّى سليمان الخلافة،عزل موسى وأولاده، وقتل ابنه عبد العزيز بن موسى الذي شارك في فتح الأندلس أمّا طارق بن زياد فقد انقطعت أخباره إثر وصوله إلى الشام،واضطربت أقوال المؤرخين في نهايته، غير أن الراجح أنه لم يولّ عملا بعد ذلك، ويبدو أنّه آثر أن يعيش بعيدًا عن الأضواء، ويُمضي أيّامه في العبادة والزهد بعيدًا عن الشهرة وضجيج السياسة، توفي سنة 720م.

الفارس التاسع

مسلمة بن عبد الملك

مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية أبوه عبد الملك بن مروان، وأمه من أمهات الأولاد - يريدون بكلمة أمهات الأولاد: الجواري والإماء اللواتي ولدن لمواليهنّ ذكرانًا من ألقابه:1-فارس بني مروان 2- الجرادة الصفراء وولادة مسلمة كانت حوالي سنة 66هـ 685م نشأ وترعرع في ظروف مهمة حتى تستكمل متطلبات شخصيته الفكرية والإدارية والسياسية والعسكرية فمسلمة من بيت السلطة، بني أمية، وأهله أمراء وقادة وخلفاء، نشأ في دمشق عاصمة الخلافة الأموية،فتعلم القرآن الكريم، ورواية الحديث النبوي الشريف، وأتقن علوم اللغة العربية وفنون الأدب، وتدرب على ركوب الخيل والفروسية والسباحة والرمي بالنبال، والضرب بالسيف،والطعن بالسنان،وتلقى علومه وتدرب في حياة وكنف والده عبد الملك بن مروان ووالده أبرز خلفاء بني أمية في بلاد الشام، فكان حصيفًا عالمًا داهية ذا مقدرة وذكاء، لذا أرسى عبد الملك أسس شخصية ابنه مسلمة وبدت ملامحها واضحة في وقت مبكر من عمره، وكان مسلمة نسخة طبق الأصل من والده حتى توفي والده سنة ست وثمانين من الهجرة النبوية الشريفة 705م.

وفي سنة ست وثمانين من الهجرة غزا مسلمة أرض الروم،وفي سبع وثمانين غزا الروم فأثخن فيهم بناحية المصيصة مدينة على شاطئ نهر جيجان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم، وفتح حصونًا كثيرة منها حصن بولق والأخرم وبولس وقمقيم وفي سنة ثمان وثمانين من الهجرة غزا وأخوه بلاد الروم، فهزم الله الروم حتى دخلوا طوانة وفتح مسلمة أيضاً حرثومة وفي تسع وثمانين غزا مسلمة والعباس بن الوليد بن عبد الملك الروم،فافتتح حصن عمورية ولقي من الروم جمعاً فهزمهم وافتتح هرقلة وقمونية وغزا الترك حتى بلغ مدينة باب الأبواب وهي ميناء كبير على بحر الخزر ومدينة كبيرة محصنة، من ناحية داغستان.

وفي سنة اثنتين وتسعين من الهجرة غزا أرض الروم ففتح حصوناً ثلاثة وأجلى أهل سوسنة إلى بلاد الروم وفي سنة أربع وتسعين من الهجرة غزا أرض الروم فافتتح سندرة،وهي حصن من حصون الروم التي أقامها البيزنطيون للدفاع عن عاصمتهم القسطنطينية وهى مدينة معروفة عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الشرقية،بناها قسطنطين سنة 330م، وهي مسورة بسور حصين،ارتفاعه ما بين أربعة عشر قدماً وعشرين،ومحيطها أكثر من اثني عشر ميلاً من الجنوب، ومن هذا الغزو عاد مسلمة إلى الديار المقدسة فحج بالناس في هذه السنة وفي سنة سبع وتسعين من الهجرة غزا أرض الوضاحية وفيها غزا برجمة وحصن ابن عوف وافتتح حصني الحديد وسرور.

في سنة ثمان وتسعين هجرية ولى سليمان أخاه مسلمة قائداً عاماً للقوات الغازية القسطنطينية، فسار على رأس جيشه المؤلف في البحر، وكانت مدينة دابق هي القاعدة المتقدمة لحشد جيش مسلمة،وسلك طريق مرعش فافتتح مدينة الصقالبة وسار إلى القسطنطينية حتى نزل عمورية، وأحسن في قيادته فبقى محاصراً للقسطنطينية 12 شهراً، وقيل إنه ضاقت بهم الحال وقلت المؤن حتى أكل عسكره الميتة والعظم، فما وهن ولا توانى ولا ضعف عن النهوض بواجبه، فلقد كان حصار القسطنطينية ملحمة رائعة للمسلمين بقيادة مسلمة بن عبد الملك بن مروان.

ركز أبوه عبد الملك بن مروان عليه، خاصة في وصية أبنائه وبنيه وهو على فراش الموت، فقال: أوصيكم بتقوى الله فإنها أزين حلية، وأحصن كهف، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حق الكبير، وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه فإنه نابكم الذي عنه تفترون، وحاميكم الذي عنه ترمون فهذا ثناء عاطر وتقدير بالغ لمسلمة بما يدل على مبلغ ثقته به واعتماده عليه وحقاً كان مسلمة من قادة الجهاد الإسلامي بالنسبة لبني أمية لا يخالفون له رأياً ولا يعصون له رأياً وأمراً، ويلجأون إليه في أيام المحن والحروب وكان ذا رأي ودهاء وصفة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة قائلاً: إني لقيت بني مروان فما

لقيت منهم أمكر ولا أبعد غدراً من مسلمة وكان إدارياً حازماً، ورجل دولة من الطراز الأول وقائداً متميزاً.

كان مسلمة كريماً غاية الكرم ومن أمثلة كرمه قوله يوماً لنصيب الشاعر: سلني قال: لا قال: ولِمَ؟ قال: لأن كفك بالجزيل أكثر من مسألتي باللسان فأعطاه ألف دينار وأهدى إلى الحسن البصري كساءً أسود أو أحمر له أعلام،وكان الحسن يصلي فيها وكان إذا كثر عليه أصحاب الحوائج قال لابنه: إيذن لجلسائي، فيأذن لهم فيفتنّ ويفتنّون في محاسن الناس، فيطرب لها ويهتاج،ويصيبه ما يصيب صاحب الشراب، فيقول لابنه: إيذن لأصحاب الحوائج، فلا يبقى أحد إلا قضيت حاجته وكان سمحًا يفتح بابه وقلبه لكل غاد ورائح، فيقضي حاجة المحتاج ويأخذ بيد المضطر ويغيث الملهوف ويجير من استجار به.

كان يقوم من الليل فيتوضأ ويتنفل حتى يصبح وكان يثق بورع عمر بن عبد العزيز وعمر يثق بورعة فدخل مسلمة على عمر في مرضه الذي مات فيه فأوصاه عمر بن عبد العزيز أن يحضر موته، وأن يلي غسله وتكفينه، وأن يمشي معه إلى قبره، وأن يكون ممن يلي إدخاله في لحده،ومن المعلوم أن المرء لا يوصي أحدًا بأن يحضر موته ويلي غسله وتكفينه إلا إذا كان يثق بورعه وتدينه وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعرف واجب الحاكم تجاه المحكومين ولايرضى للحاكم أن يغمط حقوق المحكومين،وكان يؤدي فريضة الحج ويقصد بيت الله في مكة

المكرمة محرماً،ويشد الرحال إلى مسجد النبي ﷺ في المدينة النبوية كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، وقد تولى إمارة الحج سنة أربع وتسعين من الهجرة في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك ولم يكن لمسلمة أمل في تولي الخلافة لأن الخلفاء وقتها لابد أن تكون امهاتهم حرائر عربيات وأم مسلمة جارية مع أنه كان أحق بالملك من سائر إخوته، وكان ذا عقل راجح ورأي سديد يحولان بينه وبين مغامرة تشق صفوف المسلمين، وكان من أكثر الناس حرصًا على الوحدة،كما أنه كان يعتبر الخلافة وسيلة من أجل خدمة الأمة لا غاية من أجل أطماع شخصية وأمجاد أنانية، وهو بحق خدم الأمة أجل الخدمات، وبذلك حقق الوسيلة واستغنى عن الغاية وعن شخصيته فقد كان قائدًا كريماً معطاءاً لا يبخل بشء على أحد أمضى كل حياته قائدًا، خلقه الله ليكون غازيًا لا ليكون واليًا، فوجوده بين جنوده يرفع معنوياتهم ويزعزع من معنويات عدوه من جهة أخرى، فلقد كان القائد الأول في الدولة الأموية بعد محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم، وكان لا يتعالى على أحد غرورًا بانتصاراته أو مكانته الرفيعة بين الحكام والمحكومين على حد سواء مات عن عمر يناهز الرابعة والخمسين ، توفي في سنة 121 هـ 738م، وكانت وفاته بالشام ودفن بموضع يقال له الحانوت.

الفارس العاشر   محمد بن القاسم الثقفى

هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي رجل قضى أربعة أخماس عمره بعد بلوغه مبلغ الرجال في ساحات الجهاد، ولم يسقط السيف من يده في السنوات الباقية من عمره إلا مضطراً ومكرهًا وهو أعظم من حاصر القسطنطينية من القادة العرب المسلمين ولد سنة 72هـ بمدينة الطائف في أسرة معروفة، فقد كان جده محمد بن الحكم من كبار الثقفيين وفي سنة 75هـ صار الحجاج بن يوسف الثقفي والياً عاماً على العراق والولايات الشرقية التابعة للدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان فعيّن الحجاج عمّه القاسم والياً على مدينة البصرة، فانتقل الطفل محمد بن القاسم إلى البصرة، مع والده، ثم بنى الحجاج مدينة واسط التي صارت معسكرًا لجنده الذين يعتمد عليهم في الحروب، وامتلأت بسكانها الجدد وقوم الحجاج، وفي هذه المدينة وغيرها من العراق نشأ وترعرع محمد بن القاسم وتدرب على الجندية، حتى أصبح من القادة المعروفين وهو لم يتجاوز بعد 19 عاماً وكان محمد بن القاسم يسمع كثيراً عن بلاد السند، ولم تكن تلك البلاد في ذلك الحين غريبة على المسلمين، فقد كان لهم فيها سابقة من غزوات في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهما، ثم زاد اهتمام

العرب ببلاد السند حين قامت الدولة الأموية على يد الخليفة معاوية في سنة 40هـ حتى نجح في فتح إقليم مهم بتلك البلاد وهو (إقليم مكران) الذي كان يحكمها الولاة الأمويون بعد ذلك بصفة مستمرة.

حدث في سنة 88هـ أن سفينة عربية كانت قادمة من جزيرة الياقوت (بلاد سيلان) عليها نساء مسلمات، وقد مات آباؤهنّ ولم يبق لهنّ راع هناك، فقررن السفر للإقامة في العراق، ورأى ملك سيلان في ذلك فرصة للتقرب إلى العرب فوافق على سفرهنّ، بل حمل السفينة بهدايا إلى الحجاج والخليفة الوليد بن عبد الملك، وبينما كانت السفينة في طريقها إلى البصرة مارة بميناء الديبل ببلاد السند، خرج قراصنة من السند واستولوا عليها وعندئذ كتب الحجاج إلى ملك السند يطلب منه الإفراج عن النساء المسلمات والسفينة، ولكنه اعتذر عن ذلك بحجة أن الذين خطفوا السفينة لصوص لا يقدر عليهم، فبعث الحجاج حملتين على الديبل، الأولى بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمي، والثانية بقيادة بديل البجلي، ولكن الحملتين فشلتا، بل قتل القائدان على يد جنود السند ووصلت الأخبار إلى الحجاج أن النساء المسلمات والجنود العرب مسجونين في سجن الديبل، ولا يريد ملك السند الإفراج عنهم عنادًا للعرب، وهنا كانت الأسباب تلح على الحجاج في إرسال جيش كبير لفتح تلك البلاد التي كان قراصنتها يضايقون السفن العربية التجارية المارة بين موانئ البلاد العربية وموانئ بلاد الهند وبالفعل قرر الحجاج فتح

بلاد السند كلها، وقد وقع اختياره على محمد بن القاسم الثقفي ليقود جيش المسلمين، وجهزه بكل ما يحتاج إليه في ميدان القتال وتحرك البطل محمد بن القاسم بجيشه المكون من ستة آلاف مقاتل من العراق إلى الشيراز في سنة 90هـ، وهناك انضم إليه ستة آلاف من الجند، وبعد ذلك اتجه نحو بلاد السند، فبدأ بفتح مدينة بعد مدينة لمدة سنتين، حتى التقى جيش المسلمين مع الجيش السندي بقيادة الملك داهر، في معركة دامية مصيرية سنة 92هـ، وكان النصر للحق على الباطل، فقد انتصر المسلمون على المشركين، وقتل ملك السند في الميدان واستمر محمد بن القاسم في فتوحاته لبقية أجزاء بلاد السند حتى انتهى منها سنة 96هـ، وبذلك قامت أول دولة إسلامية في بلاد السند والبنجاب أي بلاد باكستان الحالية وكان محمد بن القاسم راجح الميزان في التفكير والتدبير، وفي العدل والكرم، إذا قورن بكثير من الأبطال، وهم لا يكادون يبلغون مداه في الفروسية والبطولة، ولقد شهد له بذلك الأصدقاء والأعداء ولما كان محمد بن القاسم يفكر في أن يتوجه بجيش الفتح إلى حدود بلاد الهند، وصله أمر الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك للتوجه إلى العراق، فرضخ الشاب المؤمن لقضاء الله، وهو يعلم أن مصيره الهلاك،لا لذنب اقترفه ولكن لسوء حظ وقع فيه، بسبب بعض تصرفات سياسية من قريبه الحجاج،واستعد الفتى الحزين للسفر، فخرجت الجموع الحاشدة لتوديعه باكية حزينة، لم يكن العرب وحدهم يبكون على

مصيره، بل أهل السند من المسلمين، وحتى البرهميين والبوذيين، كانوا يذرفون الدموع الغزيرة،ويرجونه أن يبقى في بلاد السند، وسوف يقفون خلفه إذا دق الخطر بابه، ولكن نفسه الأبية رفضت مخالفة أمر الخليفة.

ووصل محمد بن القاسم إلى العراق، فأرسله والي العراق صالح بن عبد الرحمن مقيدًا بالسلاسل إلى سجن مدينة واسط بسبب عداوته للحجاج،وهناك عذبه شهورًا بشتى أنواع التعذيب حتى مات البطل الفاتح سنة 95 للهجرة.

إن البطل محمد بن القاسم الثقفي فاتح بلاد السند، يعتبر من أعظم الأبطال في التاريخ الإسلامي، إنه بطل بما تحمله كلمة البطولة من معان، وقد أودع الله بين جنبيه نفسًا بعيدة المطامح لخدمة الإسلام وبلاد السند والبنجاب التي فتحها هي بلاد باكستان الحاضرة من أكبر البلاد الإسلامية، وتاريخها جزء عزيز من التاريخ الإسلامي الكبير، ويعتبر محمد بن القاسم الثقفي مؤسساً لأول دولة إسلامية في الهند، ولذلك يبقى اسمه شامخًا في سجل الفاتحين الأبطال.

الفارس الحادى عشر سعد بن أبي وقاص

من بني زهرة وهم فخذ آمنة بنت وهب أم الرسول،وقد كان الرسول ﷺ يعتز بهذه الخؤولة فقد ورد أنه ﷺ كان جالسا مع نفر من أصحابه فرأى سعد بن أبي وقاص مقبلا فقال لمن معه :هذا خالي فليرني أمرؤ خاله ولد في مكة سنة 23 قبل الهجرة نشأ سعد في قريش، واشتغل في بري السهام وصناعة القسي ، وهذا عمل يؤهل صاحبه للائتلاف مع الرمي، وحياة الصيد والغزو، وكان يمضي وقته وهو يخالط شباب قريش وساداتهم ويتعرف على الدنيا من خلال معرفة الحجاج الوافدين إلى مكة المكرمة في أيام الحج ومواسمها، المتباينة الأهداف والمتنوعة الغايات.

دخل الإسلام وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان إسلامه مبكرا ،ويتحدث عن نفسه فيقول :ولقد أتى عليّ يوم، واني لثلث الإسلام يعني أنه كان ثالث ثلاثة سارعوا إلى الإسلام، وقد أعلن إسلامه مع الذين أعلنوه بإقناع أبي بكر الصديق إياهم، وهم عثمان بن عفان والزبير بن العوّام وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله أسلم عبر حلم حين كان في يوم رأى رؤية وجد فيها أنة يمشى في مكان مظلم وكلما مشى أكثر اشتد

علية الظلام ثم وجد قمراً منيراً بشدة فذهب هناك وجد أن أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف يقفون أسفله فعلم أن القمر هو الرسول فعندها استيقظ وأعلن إسلامه.

يقول سعد : لما سمعت أمي بخبر إسلامي حتى ثارت ثائرتها، وكنت فتى بارا بها محبا لها، فأقبلت علي تقول يا سعد، ما هذا الدين الذي اعتنقته فصرفك عن دين أمك وأبيك؟ والله لتدعن دينك الجديد أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فيتفطر فؤادك حزنا علي ويأكلك الندم على فعلتك التي فعلت وتعيرك الناس أبد الدهر فقلت: لا تفعلي يا أماه فأنا لا أدع ديني لأي شيء إلا أن أمه اجتنبت الطعام ومكثت أياما على ذلك فهزل جسمها وخارت قواها، فلما رآها سعد قال لها يا أماه إني على شديد حبي لك لأشد حبا لله ولرسوله ووالله لو كان لك ألف نفس فخرجت منك نفسا بعد نفس ما تركت ديني هذا بشيء فلما رأت الجد أذعنت للأمر وأكلت وشربت على كره منها ونزل قوله تعالى :(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وعَنْ سَعِيْدِ بنِ المُسَيِّبِ، عَنْ سَعْدٍ،قُلْتُ: يَا رَسُوْلَ اللهِ مَنْ أَنَا؟ قَالَ: (سَعْدُ بنُ مَالِكِ بنِ وُهَيْبِ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ زُهْرَةَ، مَنْ قَالَ غَيْرَ هَذَا فَعَلَيْهِ لَعنَةُ اللهِ وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: أَرِقَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: (لَيْتَ رَجُلاً صَالِحاً مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ)قَالَتْ: فَسَمِعْنَا صَوْتَ السِّلاَحِ فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ سَعْدُ بنُ

أبي وَقاصٍ: أنَا يَا رَسُوْلَ اللهِ جِئْتُ أَحْرُسُكَ فَنَامَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ حَتّى سَمِعْتُ غطِيْطهُ.

عَنْ جَابِرٍ، قالَ: كُنّا مَعَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ سَعْدُ بنُ مَالِكٍ فقالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ (هَذَا خَالِي، فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ لأنّ أمّ النّبيّ ﷺ زُهْرِيّة، وَهِيَ: آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبِ بن عَبْدِ مَنَافٍ، ابْنَةُ عَمّ أبي وَقاصٍ قالَ سَعْدٌ بن ابى وقاص: اشْتَكَيْتُ بِمَكّة، فَدَخَلَ عَلَيّ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ يَعُوْدُنِي، فَمَسَحَ وَجْهِي وَصَدْرِي وَبَطْنِي، وَقالَ: (اللّهُمّ اشْفِ سَعْداً) فَمَا زِلْتُ يُخَيّلُ إِلَيّ أَنّي أَجِدُ بَرْدَ يَدِهِ ﷺ عَلَى كَبِدِي حَتّى السّاعَة.

أول من رمى بسهم في سبيل الله، وأول من رمي أيضا، وأنه الوحيد الذي افتداه الرسول بأبويه فقال له يوم أحد :ارم سعد فداك أبي وأمي، ويقول علي ابن أبي طالب :ما سمعت رسول الله ﷺ يفدي أحدا بأبويه الا سعدا، فاني سمعته يوم أحد يقول: ارم سعد.. فداك أبي وأمي وكان سعد يعدّ من أشجع فرسان العرب والمسلمين وكان له سلاحان رمحه ودعاؤه وكان مجاهداً في معركة بدر وفي معركة أحد.

كان سعد بن أبي وقاص إذا رمى عدوا أصابه وإذا دعا الله دعاء أجابه،وكان الصحابة يردون ذلك لدعوة الرسول ﷺ له اللهم سدد رميته، وأجب دعوته ويروى أنه رأى رجلاً يسب طلحة وعلي والزبير فنهاه فلم ينته فقال له إذن أدعو عليك فقال الرجل أراك تتهددني كأنك

نبي فانصرف سعد وتوضأ وصلى ركعتين ثم رفع يديه قائلا اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سب أقواما سبقت لهم منك الحسنى، وأنه قد أسخطك سبه إياهم، فاجعله آية وعبرة فلم يمض غير وقت قصير حتى خرجت من إحدى الدور ناقة نادّة لا يردها شيء، حتى دخلت في زحام الناس ثم اقتحمت الرجل فأخذته بين قوائمها، وما زالت تتخبطه حتى مات.

شارك في أحد وتفرق الناس أول الأمر عن رسول الله ﷺ ووقف سعد يجاهد ويقاتل فلما رآه الرسول ﷺ يرمي جعل يحرضه ويقول له يا سعد إرم فداك أبي وأمي وظل سعد يفتخر بهذه الكلمة طوال حياته.

خرج سعد في ثلاثين ألف مقاتل ولقاء الفرس المجتمعين في أكثر من مائة ألف من المقاتلين المدربين المدججين بأنواع متطورة من عتاد وسلاح ويتولى قيادة الفرس رستم، وقبل المعركة كانت الرسائل بين سعد وعمر بن الخطاب ومنها: يا سعد بن وهيب لا يغرّنّك من الله، أن قيل: خال رسول الله وصاحبه، فان الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته والناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ،الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله منذ بعث إلى أن فارقنا عليه، فألزمه، فانه الأمر ثم يقول له اكتب اليّ بجميع أحوالكم وكيف تنزلون؟ وأين يكون عدوّكم منكم واجعلني بكتبك إلي كأني أنظر إليكم

ويكتب سعد فيصف له كل شيء حتى انه ليكاد يحدد له موقف كل جندي ومكانه وقد أوصى عمر سعد بدعوتهم إلى الإسلام،وينفذ سعد وصية عمر بن الخطاب,فيرسل إلى رستم قائد الفرس نفرا من صحابه يدعونه إلى الله والى الإسلام.

فبعث سعد جماعة منهم :النعمان بن مقرن، وفرات بن حبان، وحنظلة بن الربيع، وعطارد بن حاجب، والأشعث بن قيس، والمغيرة بن شعبة ، وعمرو بن معد يكرب، فدخلوا على رستم اسفنديار القائد الفارسى، وقد زّينوا مجلسه بالنّمارق المُذْهَبة والزرابيّ الحريرَ وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة،والزينة العظيمة، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقالوا له: ضع سلاحك فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت فقال رستم :ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله؟ قال:

الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم :قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟قال: نعم كم أحب إليكم؟ يوماً أو يومين؟ قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا رؤساء قومنا فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل فقال: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، تدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظرون إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي، والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب.

وبعث سعد أكثر من رسول لحوار رستم، وكان المرض قد اشتد على سعد وملأت الدمامل جسده حتى ما كان يستطيع أن يجلس، فضلا أن يعلو صهوة جواده ويخوض عليه معركة، عندئذ وقف في جيشه خطيبا، مستهلا خطابه بالآية الكريمة :وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أنّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصّالِحُونَ) ،وبعد فراغه من خطبته، صلى بالجيش صلاة الظهر ثم استقبل جنوده مكبّرا أربعا: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. وأستطاع جيش سعد هزيمة الفرس وقائدها رستم ووصل الجيش إلى المدائن.

كان فتح المدائن ,بعد موقعة القادسية باكثر من 5 شهور، جرت خلالهما مناوشات مستمرة بين الفرس والمسلمين وقد استطاع سعد هزيمة الفرس بقيادة الجيش لعبو رنهر دجلة وجهز كتيبتين، الأولى: واسمها كتيبة الأهوال والثانية: اسمها الكتيبة الخرساء وقد نجحا في العبور وهزيمة الفرس.

ولاه عمر بن الخطاب إمارة العراق، فراح سعد يبني ويعمر في الكوفة، وذات يوم اشتكاه أهل الكوفة لأمير المؤمنين فقالوا إن سعدا لا يحسن يصلي ويضحك سعدا قائلا والله إني لأصلي بهم صلاة رسول الله، أطيل في الركعتين الأوليين وأقصر في الآخرين واستدعاه عمر إلى المدينة فلبى مسرعا، وحين أراد أن يعيده إلى الكوفة ضحك سعدا قائلا أتأمرني أن أعود إلى قوم يزعمون أني لا أحسن الصلاة ؟وآثر البقاء في المدينة.

عندما حضرت عمر الوفاة جعل الأمر من بعده إلى الستة الذين مات النبي ﷺ وهو عنهم راض وأحدهم سعد بن أبي وقاص، وقال عمر إن وليها سعد فذاك، وإن وليها غيره فليستعن بسعد.

اعتزل سعد في الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وأمر أهله وأولاده ألا ينقلوا إليه شيئا من أخبارها، وقد ذهب إليه ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ويقول له: يا عم، ها هنا مائة

ألف سيف يروك أحق الناس بهذا الأمر فيجيبه سعد: أريد من مائة ألف سيف، سيفا واحدا، إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئا، وإذا ضربت به الكافر قطع فيتركه وعزلته وحين انتهى الأمر لمعاوية سأل سعدا: مالك لم تقاتل معنا؟؟ فأجابه إني مررت بريح مظلمة، فقلت: أخ.. أخ..، وإتخذت من راحلتي حتى انجلت عني..

فقال معاوية :ليس في كتاب الله أخ.. أخ.. ولكن قال الله :وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) وأنت لم تكن مع الباغية على العادلة، ولا مع العادلة على الباغية أجابه سعد قائلا: ما كنت لأقاتل رجلا قال له رسول الله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.

عُمر سعد بن أبي وقاص كثيراً وأفاء الله عليه من المال الخير الكثير لكنه حين أدركته الوفاة دعا بجبة من صوف بالية وقال كفنوني بها فإني لقيت بها المشركين يوم بدر وإني أريد أن ألقى بها الله عز وجل أيضاً وكان رأسه بحجر ابنه الباكي فقال له ما يبكيك يا بني ؟ إن الله لا يعذبني أبدا،وإني من أهل الجنة فقد كان إيمانه بصدق بشارة رسول الله كبيرا وكانت وفاته سنة خمس وخمسين من الهجرة النبوية وهو آخر من مات من العشرة المبشرين بالجنة، ودفن في البقيع رضي الله عنه وأرضاه.

الفارس الثانى عشر يوسف بن تاشَفين

1006 -1106

هو يوسف بن تاشَفين ناصر الدين بن تالاكاكين الصنهاجي ثاني ملوك المرابطين بعد أبو بكر بن عمراتخذ لقب أمير المسلمين وهو اعظم ملك مسلم في وقته أسس أول إمبراطورية في الغرب الإسلامي من حدود تونس حتى غانا جنوباً والاندلس شمالا وانقذ الاندلس من ضياع محقق وهو بطل معركة الزلاقة وقائدها وحد وضم كل ملوك الطوائف في الأندلس إلى دولته بالمغربحوالى عام 1090 بعدما استنجد به أمير أشبيلية.

عرف بالتقشف والزهد والشجاعة قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: كان ابن تاشفين كثير العفو، مقربًا للعلماء، وكان أسمر نحيفًا، خفيف اللحية، دقيق الصوت، حازماً، يخطب لخليفة العراق ووصفه بدر الشيخ في الكامل بقوله: كان حليماً كريماً، ديناً خيراً، يحب أهل العلم والدين، ويحكّمهم في بلاده، ويبالغ في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم، وكان إذا وعظه أحدُهم، خشع عند استماع الموعظة، ولان قلبُه لها، وظهر ذلك عليه، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام ويعتبر يوسف بن تاشفين بحق واحداً من عظماء المسلمين الذين جددو للأمة

الإسلامية نهضتها وأعادوا لها قوتها وشخصية يوسف بن تاشفين شخصية إسلامية متميزة جمعت من خصائل الخير والفضيلة ما ندر أن يوجد مثلها في شخص مثله فيوسف بن تاشفين أبو يعقوب لا يقل عظمة عن يوسف بن أيوب الملقب بصلاح الدين الأيوبي، وإذا كان الأخير قد ذاع صيته في المشرق الإسلامي وهو يقارع الصليبيين ويوحد المسلمين، فإن الأول قد انتشر أمره في المغرب الإسلامي وهو يقارع الأسبان والمارقين من الدين وملوك الطوائف ويوحد المسلمين في زمن كان المسلمون فيه أحوج ما يكونون إلى أمثاله نشأ يوسف بن تاشفين في موريتانيا نشأة إيمانية جهادية، وأصله من قبائل صنهاجه اللثام البربرية.

كانت الظروف السياسية السائدة في زمنه غاية في التعقيد غلب عليها تعدد الولاءات وانقسام العالم الإسلامي وسيطرة قوى متناقضة على شعوبه ففي بغداد كانت الخلافة العباسية من الضعف بمكان بحيث لا تسيطر على معظم ولاياتها، وفي مصر ساد الحكم الفاطمي، وفي بلاد الشام بدأت بواكير الحملات الصليبية بالنزول في سواحل الشام، وفي الأندلس استعرت الخصومة والخيانة وعم الفساد بين ملوك طوائفها، وأما في بلاد المغرب الإسلامي حيث نشأ وترعرع فكانت قبائل مارقة من الدين تسيطر على الشمال المغربي، وتحصن مواقعها في المدن الساحلية كسبتة وطنجة ومليلة، وهي من آثار الدولة العبيدية الفاطمية التي تركت

آثاراً عقائدية منحرفة تمثلت في جزء منها فى إمارة تسمى الإمارة البرغواطية سيطرت على شمال المغرب وبنت أسطولاً قوياً لها وحصنت قواتها البحرية المطلة على مضيق جبل طارق وفي عام 445هـ أسّس عبد الله بن ياسين حركة المرابطين (من الرباط في سبيل الله)،وبعد عشر سنوات تسلم قيادة الحركة يوسف بن تاشفين، فبدأ بتعمير البلاد وحكمها بالعدل، وكان يختار رجالاً من أهل الفقه والقضاء لتطبيق الإسلام على الناس،واهتم ببناء المساجد باعتبارها مراكز دعوة وانطلاق وتوحيد للمسلمين تحت إمارته، ثم بدأ يتوسع شرقاً وجنوباً وشمالاً فكانت المواجهة بينه وبين الإمارة البرغواطية الضالة أمراً لا مفر منه استعان في البداية بالمعتمد بن عباد أحد أمراء الأندلس الصالحين لمحاربة البرغواطيين، فأمدّه المعتمد بقوة بحرية ساعدته في القضاء على الإمارة الضالة، وهكذا استطاع أن يوحد كل المغرب حتى مدينة الجزائر شرقاً، وحتى غانا جنوباً، وكان ذلك عام 476هـ.

بعد أن قوي ساعده واستقرت دولته وتوسعت، لجأ إليه مسلموا الأندلس طالبين الغوث والنجدة، حيث كانت أحوال الأندلس تسوء يوماً بعد يوم، فملوك الطوائف لقبوا أنفسهم بالخلفاء، وخطبوا لأنفسهم على المنابر،وضربوا النقود بأسمائهم، وصار كل واحدٍ منهم يسعى للاستيلاء على ممتلكات صاحبه،لا يضره الاستعانة بالأسبان النصارى أعداء المسلمين لتحقيق أهدافه،واستنابوا الفساق،واستنجدوا بالنصارى

وتنازلوا لهم عن مداخل البلاد ومخارجها وأدرك النصارى حقيقة ضعفهم فطلبوا منهم المزيد ولقد استجاب ابن تاشفين لطلب المسلمين المستضعفين ، وفي ذلك يقول ابن العربي فلبّاهم أمير المسلمين ومنحه اللـه النصر، وألجم الكفار السيف، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء من البلاد والمعاقل، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي للأندلس تحالفوا مع النصارى، فدعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد والدخول في بيعة الجمهور، فقالوا: لا جهاد إلا مع إمام من قريش ولستَ هو، أو مع نائبه وما أنت ذلك، فقال: أنا خادم الإمام العباسي، فقالوا له: أظهر لنا تقديمه إليك، فقال: أو ليست الخطبة في جميع بلادي له؟ فقالوا: ذلك احتيال، ومردوا على النفاق.

وكان بطلا نجداً شجاعاً حازماً مهاباً ضابطاً لملكه، متفقداً الموالي من رعيته، حافظاً لبلاده وثغوره، مواظباً على الجهاد، مؤيداً منصوراً، جواداً كريماً سخياً خُطب باسمه بالأندلس والمغرب على ألف منبر وتسعمائة منبر وكان ملكه من مدينة افراغة أول بلاد الإفرنج قاصية شرق بلاد الأندلس إلى آخر عمل شنترين والاشبونة على البحر المحيط من بلاد غرب الأندلس وملك بالمغرب من بلاد العدوة من جزائر بني مزغنة إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى، إلى جبل الذهب من بلاد السودان .

وحتى يكون ابن تاشفين أميراً شرعياً أرسل إلى الخليفة العباسي يطلب منه توليته يقول السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء: وفي سنة تسع وسبعين أرسل يوسف بن تاشفين صاحب سبتة ومراكش إلى المقتدي يطلب أن يسلطنه وأن يقلده ما بيده من البلاد فبعث إليه الـخُلَعَ والأعلام والتقليدَ ولقّبه بأمير المسلمين، ففرح بذلك وسُر به فقهاء المغرب وبعد أن زاد ضغط النصارى الإسبان القادمين من الشمال استنجد المعتمد بن عباد بابن تاشفين، ونُقِلَ عنه في كتاب دراسات في الدولة العربية في المغرب والأندلس أنه قال: رعي الـجِمال عندي خير من رعي الخنازير وذلك كناية عن تفضيله للسيادة الإسلامية، ودخل المعتمد مع ابن تاشفين الأندلس شمالاً وقاد ابن تاشفين الجيوش الإسلامية وقاتل النصارى قتالاً شديداً وكانت موقعة الزلاقة من أكبر المعارك التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً على الأسبان، وهُزم ملكهم الفونسو السادس هزيمة منكرة وعلى أثر هذه الموقعة خَلَعَ ابنُ تاشفين جميعَ ملوك الطوائف من مناصبهم ووحّد الأندلس مع المغرب في ولاية واحدة لتصبح أكبر ولاية إسلامية في دولة الخلافة.

يقول صاحب الحُلَل الـمَوْشِيّة: (ولما تضخمت مملكة يوسف بن تاشفين واتسعت اجتمعت إليه أشياع قبيلته، وأعيان دولته، وقالت له: أنت خليفة الله في أرضه، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير، بل ندعوك بأمير المؤمنين فقال لهم: حاشا لله أن نتسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به

خلفاء بني العباس ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة، وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم، فقالوا له: لا بد من اسم تمتاز به، فوافق على أمير المسلمين وناصر الدين وخطب لهم بذلك في المنابر وخوطب به من المغرب والأندلس يقول السلامي الناصري في الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى إنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة العباسي مع أنه كان بعيداً عنه، وأقوى شوكة منه، لتكون ولايته مستندة إلى الشرع وإنما تسمى بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدباً مع الخليفة حتى لا يشاركه في لقبه، لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة، والخليفة من قريش.

اتخذ يوسف السواد شعاراً للمرابطين، وهو نفس شعار الدولة العباسية،ورفع شعار السواد يدل على التمسك بالوحدة وعدم شق جماعة المسلمين، إضافة إلى أن راية رسول الله كانت سوداء ذاع صيت ابن تاشفين بين العلماء والقضاة بشكل خاص وبين الناس بشكل عام فتناقلوا أخباره وصفاته،وتواتر عنهم نقل صفات الجهاد والعدل والزهد والإخلاص والتمسك بالإسلام وبدولة المسلمين الشرعية، حتى أثنى عليه معظم العلماء والفقهاء.

الفارس الثالث عشر الحاجب المنصور

938 م - 8 أغسطس 1002 م

أبي عامر محمد بن أبي عامر حاجب الخلافة والحاكم الفعلي لها في الأندلس في عهد الخليفةهشام المؤيد بالله بدأ حياته السياسية وتدرج في المناصب منذ عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ،وكان على علاقة وطيدة بزوجة الخليفة صبح البشكنجية أم الخليفة هشام المؤيد بالله، والتي كانت وصية على عرش ولدها بعد وفاة زوجها الحكم عاونت صبح الحاجب المنصور على إقصاء جميع منافسيه، وهو وما أحسن استغلاله لأبعد مدى، بل وذهب إلى أبعد من ذلك بأن حجر على الخليفة الصبي، وقيّد سلطته هو وأمه وبتمكن الحاجب المنصور من مقاليد الحكم التفت إلى توسع الدولة شمالاً، فحرّك بحملاته العسكرية حدود الممالك المسيحية في الشمال إلى ما وراء نهر دويرة، فبلغت الدولة الأموية في الأندلس أوج قوتها في عهده.

أرسى المنصور القواعد لحكم أسرته من بعده، إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً حيث انتهت سيطرتهم على حكم الأندلس بعد أقل من عقد على وفاته، بعد أن ساد الأندلس فترة من الاضطرابات التي نتجت من التصارع على الخلافة.

ولد أبو عامر عام 327 هـ في الجزيرة الخضراء في بيت من أعيان المدينة كان أبوه من طلاب العلم المعروفين، وأمه هي بُريهة بنت يحيى بن زكريا التميمي من أهل بيت من أشراف قرطبة يسمون ببني برطال جده محمد لأمه يحيى بن إسحاق وزير وطبيب الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله وجده عبد الملك المعافري كان من الداخلين للأندلس مع طارق بن زياد قدم محمد بن أبي عامر إلى قرطبة شابًا لطلب العلم والأدب والحديث، فدرس الأدب على يدي أبي علي البغدادي وأبي بكر بن القوطية، والحديث على يدي أبي بكر بن معاوية القرشي راوي النسائي ثم بدأ حياته بأن افتتح دكانًا أمام قصر الخليفة يكتب فيه الرسائل والعرائض لأصحاب المصالح، فلفت نظر من في القصر بأسلوب كتابته وبجزالة عباراته.

التحق ابن أبي عامر بخدمة الخليفة الحكم المستنصر بالله عندما رشحه الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ليكون وكيلاً لعبد الرحمن أول أولاد الخليفة، وهو ما عينه عليه الخليفة بموافقة من أم عبد الرحمن صبح البشكنجية، ، ثم ولى دار السكة ، ثم ولي خطة المواريث فقاضياً على أشبيلية ولبلة وأعمالهما وبعد وفاة عبد الرحمن صغيرًا، بقي في خدمة أم الخليفة إلى أن أنجبت ولدها الثاني هشام، فأصبح وكيلاً لهشام ثم جعله الخليفة الحكم على الشرطة الوسطى، ثم أنفذه إلى المغرب ، بأموال كثيرة إلى المغرب لاستمالة زعماء البربر إلى جانب الخلافة، ثم

أرسل مرسوم بتوليته قاضي لقضاة عدوة المغرب ثم أسند إليه النظر على الحشم وهو في مرض موته وفي فترة خدمته لصبح البشكنجية ، لجأ ابن أبي عامر إلى استمالتها بحُسن خدمتها وإتحافها بالهدايا، والتي كان أشهرها نموذجًا مبهرًا لقصر من الفضة أنفق عليه قدرًا كبيرًا من المال، وأهداه إليها في الفترة التي ولي فيها دار السكة أثار ذلك عددًا من رجال الدولة الذين رأوا في صعوده في المناصب ما يقلقهم، فسعوا لدى الخليفة يتهمون ابن أبي عامر بالإنفاق من مال السكة، فأمر الخليفة بالتحقق من ذلك، وكان ابن أبي عامر قد أنفق منه بالفعل، فلجأ إلى صديقه الوزير ابن حُدير ليقرضه ما نقص من أموال السكة، فأقرضه ابن حدير من المال ما أتم ابن أبي عامر به ما لديه من عجز وبعد وفاة الخليفة الحكم، كاد لدى صقالبة قصر الخلافة خطة تهدف إلى تنحية وليّ العهد الصبي هشام، وتولية عمه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بدلاً منه وفي سبيلهم لتنفيذ ذلك، استدعى زعماؤهم الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وأنبأوه بخبر وفاة الخليفة، ومخططهما بتولية المغيرة تظاهر المصحفي بموافقتهم، وعمل من جانب آخر على إفشال ذاك المخطط خشية أن يزيد نفوذ الصقالبة في القصر. انصرف المصحفي من القصر، وقرر مع عدد من كبار رجال الدولة وزعماء البربر من بني برزال، ضرورة التحرك السريع لإفشال هذا المخطط، وكان القرار يقتضي قتل المغيرة بن عبد الرحمن نفسه لقطع السبيل أمام مخطط

الصقالبة فتولى محمد بن أبي عامر وجماعة من الرجال تنفيذ ذلك القرار، لينتهي الأمر بقتل مرشح الصقالبة، وتنصيب ولي العهد هشام خلفًا لأبيه وبعد أن فشل مخطط الصقالبة، دبت الوحشة بين الحاجب والصقالبة،الذين بدأوا في كيد المؤامرات ضده، فلجأ جعفر إلى تقسيمهم، فكان نصيب ابن أبي عامر منهم خمسمائة فتى، ولكي يستميلهم، أغدق ابن أبي عامر عليهم وأجزل لهم العطاء، فأحبوه واستقوى هو بهم، ثم ما لبث أن انضم إليه بنو برزال وهم من زعماء البربر وصاروا تحت قيادته، فاشتدّت بهم قوته ولم تمض أشهر على خلافة المؤيد بالله، حتى هاجمت الممالك المسيحية أراضي المسلمين في الشمال، فأشار ابن أبي عامر على المصحفي بتجهيز جيش لمنازلتهم، وعرض جعفر على أكابر الدولة قيادته فرفضوا، فوجدها ابن أبي عامر فرصة مناسبة ليضم إليه قيادة الجيش، فجهزه المصحفي بمائة ألف دينار لتلك المهمة وخرج ابن أبي عامر في جيشه مهاجماً أراضي جليقية، فحاصر حصن الحامة، ثم عاد إلى قرطبة بعد 53 يوماً محملاً بالسبي والغنائم،مما عزز من مكانته داخل الدولة ليعزز أمام الشعب قدراته العسكرية إضافة إلى ما عرفوه من قدراته الإدارية بعد عودته إلى قرطبة، بدأ محمد بن أبي عامر في التخطيط لإزاحة الحاجب جعفر المصحفي من طريقه إلى قمة السلطة، فاستغل سوء العلاقة بين جعفر المصحفي وغالب الناصري صاحب مدينة سالم بسبب اتهام جعفر لغالب بالتقصير في الدفاع عن الحدود

الشمالية أمام حملة الممالك المسيحية في الشمال على حدود الدولة بعد وفاة الخليفة، كما استغل حسن علاقته بصبح أم الخليفة التي كانت تساعده على إنفاذ ما بدا له من مراسيم باسم الخليفة، حتى ذهب البعض إلى زواج ابن أبي عامر من أم الخليفة في السر وفي يوم الفطر عام 366 هـ، خرج محمد بن أبي عامر في جيشه والتقى وجيش غالب في مجريط، ثم افتتحا معًا حصن مولة وغنما فيها الكثير،إلا أن غالبًا تنازل عن مغانمه لابن أبي عامر بل وبعث للخليفة ينبأه بحسن تدبير ابن أبي عامر في تلك الحملة، مما أعلى من أسهم ابن أبي عامر لدى القصر والعامة على حد سواء ثم أقنع محمد بن أبي عامر حليفته صبح أم الخليفة، باستصدار مرسوم خلافي من ابنها بعزل محمد بن جعفر المصحفي كحاكم لقرطبة، وتولية محمد بن أبي عامر حاكمًا على قرطبة بالإضافة إلى منصبه كقائد لجيش المدينة فلجأ جعفر لوسيلة يوقف بها هذا التحالف بين غريميه غالب وابن أبي عامر، بأن طلب يد أسماء بنت غالب للزواج من ابنه محمد بن جعفر، وهو ما أسرع ابن أبي عامر لإفشاله بأن طلب أسماء لنفسه، وهو ما وافق هوى غالب فأنكحها ابن أبي عامر وفي صفر 367 هـ، خرج ابن أبي عامر في غزوة جديدة فاجتمع بصهره غالب في طليطلة، وهاجما شلمنقة وعادا سويًا من تلك الحملة إلى قرطبة بالغنائم حيث تم زفاف أسماء إلى ابن أبي عامر من قصر الخلافة،وأصدر الخليفة أمره برفع القائد غالب لرتبة الحجابة

بالمشاركة مع الحاجب جعفر المصحفي، وهو ما عدّه جعفر انتقاصًا من سلطته وفي 13 شعبان 367 هـ، كانت نكبة الخليفة جعفر المصحفي بأن أصدر مرسوم بإقالة الحاجب جعفر المصحفي، وسجنه هو وأبنائه وأقاربه ومصادرة أموالهم شدد ابن أبي عامر في التنكيل بجعفر ونكايته،حتى أنه كان يحمله معه مكبلاً في غزواته، ثم زجه في السجن، فظلّ في محبسه في الزهراءلأعوام إلى أن مات مسموماً وقيل مخنوقا في محبسه عام 372 هـ، وأسلم إلى أهله وهو في أقبح صورة بعد أن تخلّص ابن أبي عامر من جعفر ، جعل ابن أبي عامر همّه التخلّص من صهره غالب لينفرد وحده بالسلطة وأدرك غالب ما يضمره صهره، فداهنه ودعاه وهو عائد من إحدى حملاته على قشتالة إلى وليمة في أنتيسة إحدى مدن الثغر الأدنى،ودبّر له مكيده كادت تودي بحياة ابن أبي عامر، إلا أنه نجا بعد أن أصيب إصابة خفيفة غادر ابن أبي عامر إلى قرطبة وهو ينوي التجهيز لقتال غالب الذي استعان بقوات راميرو الثالث ملك ليون، ثم اقتتلت قوات غالب ومحمد بن أبي عامر في معركة شنت بجنت التي كادت أن تنتهي بانتصار قوات غالب، لولا سقوطه صريعاً من على جواده ، وحُملت رأسه لابن أبي عامر بقي أمام ابن أبي عامر خطوة أخرى، وهي عزل الخليفة الشرعي نفسه، فأشاع بين الناس أن الخليفة فوّضه فى إدارة البلاد لتفرغه للعبادة، ثم أحاط قصر الخليفة بسور وخندق، ووضع عليه حرّاس ومنع الخليفة من الظهور أدركت

صبح التهديد المحدق بعرش ابنها، غير أنه بعد أن تمكن محمد بن أبي عامر من كل السلطات، لم يعد في قدرة صبح مواجهته مباشرة، فأشاعت بين العامة أن المنصور يسجن الخليفة ويحكم رغماً عنه ويغتصب سلطته ثم راسلت زيري بن عطية حاكم المغرب لنصرة ولدها، وأرسلت أموالا اليه ليجهز جيشه ويعبر إلى الأندلس علم المنصور بذلك المخطط، فلجأ أولاً إلى رفع يدها عن أموال خزائن قصر الخليفة التي كانت تقوم بتهريبها بواسطة فتيانها، فأرسل ابن أبي عامر ابنه عبد الملك بقوة وجمع من العلماء والوزراء إلى قصر الخلافة بقرطبة، وخاطب الخليفة هشام في أمر الأموال التي تهربها والدته،وطلب أن تنقل كل الأموال من قصر الزهراء إلى قصر الزاهرة، فلم يمتنع وبعد أن جفت الأموال من بين يدي صبح، يئست من قدرتها على استرجاع سلطة ابنها، فاعتزلت الحياة حتى وفاتها ، وتسمّى محمد بن أبي عامر بلقب المنصور، ودُعي له على المنابر وفي عام 379 هـ، تعاون عبد الرحمن بن المطرف التجيبي صاحب سرقسطة مع عبد الله بن الحاجب المنصور على الانقلاب على المنصور على أن يُقسّما الملك بينهما فتكون الثغور لعبد الرحمن والبقية لعبد الله، إلا أن المنصور علم بما يدبرانه، فدبّر مكيدة لعبد الرحمن قُتل على إثرها وحبس ابنه الذي استطاع أن يفر من محبسه، ولجأ إلى جارسيا فرنانديث كونت قشتالة، فغزاه المنصور وطالبه بابنه فرفض جارسيا، فهزمه واجتاح المنصور ألبة، واستولى

على وخشمة، فاضطر جارسيا لمفاوضة المنصور وقبول شرطه بتسليم ابنه عبد الله، ثم دسّ المنصور على ابنه من قتله ثم بعث المنصور برأس ابنه وكتاب الفتح إلى الخليفة، فازدادت رهبة الناس من المنصور بقتله ابنه وفي عام 381 هـ، قدّم المنصور ابنه عبد الملك للولاية، ونزل له عن لقب الحجابة، كما استوزر ابنه عبد الرحمن اتجه المنصور كذلك، للاستكثار من جند البربر في جيشه، خاصة من زناتة الذين عبروا إلى الأندلس، واتخذ منهم جندًا كثيفًا وفي عام 375 هـ، جهّز المنصور جيشًا كثيفًا لقتال الحسن بن كنون الذي تمرد على الأمويين في المغرب وتجمّع حوله أناس كثيرون، فلم يجد الحسن أمامه سوى الاستسلام أمام ذلك الجيش، فقرر قائد الجيش حمله إلى قرطبة، إلا أن المنصور أمر بقتله وهو في الطريق، وبإخراج الأدارسة من المغرب ثم تمرّد بعد ذلك زيري بن عطية المغراوي على الأمويين في المغرب في عام 387 هـ، فأرسل له المنصور جيشًا بقيادة الفتى واضح العامري،فقامت بينهما معارك كبيرة، انهزم فيها الجيش الأندلسي، فأرسل المنصور ابنه عبد الملك بجيش آخر، وانتقل المنصور بنفسه إلى الجزيرة الخضراء لإدارة الحرب وإمداد قادته في المغرب بالقوات، وقد استطاع جيش عبد الملك أن ينتصر على جيش زيري رغم أن الأخير كان قد اقترب من النصر لولا خيانة تعرض لها زيري بتدبير من المنصور، حيث طعنه ابن عمه الخير بن مقاتل برمح في ظهره أثناء المعركة، فتسببت إصابة زيري في إرباك

جيشه وهزيمته وفراره مع بعض جنده وبعد أن شفي من جراحه، أظهر زيري الندم، وتوسّع شرقًا في أراضي قبائل صنهاجة الموالية للفاطميين باسم الخليفة هشام المؤيد بالله، وهو ما قبله منه المنصور، فعفا عنه وأقره على ما يده حتى توفي زيري، فأبقى المنصور ما له لولده المعز بن زيري وتعدّدت حملات محمد بن أبي عامر، فلم يكتف كسابقيه بالحملات الصيفية فقط، بل كانت له حملاته الشتوية، التي من خلالها استعاد مدن لُكّوشلمنقة وشقوبية وآبلة وسمورة التي فقدها المسلمون في بداية عهد الدولة الأموية في الأندلس عندما استغل فرويلا الأول ملك أستورياس انشغال عبد الرحمن الداخل بإخضاع الثورات الداخلية في الأندلس في عهده، وضمّ فرويلا تلك المدن وتعدّدت وجهات تلك الحملات، وقد ذكر لنا المؤرخون منها غزواته على حصن الحامة وحصن مولة،وشلمنقة وريف مملكة نافارا وكونتية برشلونة ، والمُنية ،وقلعة أيوب وأنتيسة ،وسمورة ، وطرنكوشة وواجه المنصور تحالف جيوش راميرو الثالث ملك ليون وجارسيا فرنانديث كونت قشتالة وسانشو الثاني ملك نافارا، في معركة حصن روطة وهزمهم هزيمة قاسية، أتبعها باحتلال حصن شنت منكش وقد نتج عن تلك الهزيمة وما سبقها من هزائم متوالية أن خلع الليونيون ملكهم راميرو الثالث، وجعلوا محله ابن عمه برمودو الثاني الذي لجأ إلى التحالف مع المنصور على أن يدفع للمنصور جزية سنوية، ويمده المنصور بجيش

يقيم في عاصمته ليون يقاتل به خصومه ثم كانت للمنصور حملات أخرى على شنت منكش ، وشقرمنية غزا المنصور برشلونة وهزم بورل الثاني كونت برشلونة، ودخل المدينة عنوة بعد أن حاصر المدينة بجيش عظيم من البر وبأسطوله من البحر لم يستطع بورل الثاني مقاومته، فاضطر إلى الهرب وترك المدينة لقدرها، ولم تمض أيام حتى سقطت المدينة فدمّرها المنصور وقتل عددًا كبيرًا من الناس، توفي الحاجب المنصور في 27 رمضان 392 هـ في مدينة سالم وهو عائد من إحدى غزواته على برغش،التي أصيب فيها بجروح، وكان قد أوصى بأن يدفن حيث مات، كان يشتكي علة النقرس وقد ترك المنصور من الولد اثنين عبد الملك وعبد الرحمن، غير ابنه عبد الله الذي قتله وقد ذكر لنا المؤرخون أربع من زوجاته على الأقل وقد بلغت غزواته التي غزاها بنفسه 57 غزوة،لم يهزم في أحدها قط

أهم المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. صحيح البخاري.
3. رجال حول الرسول - خالد محمد خالد.
4. بين فكي التاريخ - سهيل عيساوي.
5. حياة خالد بن الوليد - محمد رضا.
6. كتاب الإسلام - أوجست مولر مترجم.
7. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر.
8. سيرة ابن هشام.
9. الأعلام، الزركلي.
10. الوفيات، ابن قنفذ.
11. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر.
12. فتوح مصر والمغرب -ابن عبد الحكم.
13. البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب -ابن عذاري.
14. الحلة السيراء -ابن الأبّار القضاعي .
15. جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس - أبوعبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي .
16. فتوح البلدان -البلاذري.

17. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ابن تغري بردي.
18. وفيات الأعيان ابن خلكان وأنباء أبناء الزمان .
19. دولة الإسلام في الأندلس- محمد عبد الله عنان .
20. تاريخ الطبري .
21. البداية والنهاية .
22. الكامل لابن الأثير.
23. وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان لابن خلكان.
24. سيراعلام النبلاء للذهبى.

الفهرست